عبد الباسط يوسف
طعم البعاد
عصير الكتب

طعم البعاد

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
رقم الإيداع: 14875/2021م
الترقيم الدولي: 978-977-6902-21-3

المؤلف: عبد الباسط يوسف
تدقيق لغوي: نهال جمال
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

عبد الباسط يوسف
طعم البعاد
عصير الكتب

الفصل الأوَّل

غُربة

كم منزلٍ في الأرض يألفَهُ الفتي   وحنينه أبدًا لأول منزلِ

حين كنت صغيرًا في المرحلة الابتدائية، وكنَّا في قرية غلبت فيها الأمِّية، كان يتم استدعائي في بعض الأحيان لكتابة الخطابات (الجوابات) من بعض الأسر لابنهم المسافر، وفي مرات أخرى تتمُّ الاستعانة بي لقراءة الجوابات الواردة، تلك التي تبعث فيهم الطمأنينة على الغالي الذي تغرَّب من أجل لقمة العيش، وكنتُ أتعجَّب كثيرًا مما أرى، كيف لجواب من ورقتين أو ثلاث ورقات أن يبعث كلَّ هذا الدفء وكل تلك الراحة في النفوس؟! فأرى الأم التي كانت تسير مقصومة الظهر لسفر الظهر والسند، عابسة الوجه لغياب فرحة قلبها وأملها القادم، أراها تمشي معتدلة مبتسمة، تقوم بنفسها لإعداد الشاي أو الطعام، أو جلب (قُرصتين لزوم الشاي) للضيف الصغير، الذي يكتب أو يقرأ الجوابات، وحين يحاول البعض القيام لراحتها ترفض قائلة: كفاية أنه مرسال الغالي.

وأتذكَّر جيِّدًا كيف كان جميع الأهل في شارعنا يأتون حينما يعلمون بخبر قدوم جواب من المسافر، وتتوالى التهاني على أمِّه وزوجته وأسرته، بل وعائلته: "بركة إنِّه بخير.. يرجع لكم بألف سلامة مرفوع الرأس.."، وكثير من هذه الدعوات الطيِّبات، وحينما يعلمون بمجيء الكاتب الصغير لينسخ لهم ما يملونه عليه للغالي، فيملي كلٌّ سلامه وتحيَّاته وألف مليون سلام.

وبالطبع لا بد من لمسة الكاتب في الجوابات، فمع تنفيذ كل ما يوصون به من كتابة سلامات وأخبار ووصايا وطلبات، كان لا بدَّ للكاتب الصغير من مساحة يبدع فيها لينال ثناء المستمعين، في مشهد يذكِّرنا برواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي، حين وافقوا أن يكتب محمد أفندي العريضة، وقال له عبد الهادي:
"وحط فيها كلمتين من اللي بتقولوهم لبعض يا خواجات المدارس.. قول فيها
لا سيَّما.. وعندما.. وقبلما...".

فكانوا يطلبون منِّي الإبداع في كتابة المقدِّمة، وأن أذكر فيها شوقهم إلى المغترب، وتعطشهم إلى رؤياه، وكنت أعبِّر عن حاجتهم إلى رؤياه بكلام معروف مثل حاجة النبات إلى الماء، والمريض إلى الدواء، وعن شوقهم له بشوق الأم لوليدها، والطيور لأعشاشها، و....

مع تضمين مفردات وأوصاف وتشبيهات خاصة من الأم أو الزوجة أو الأخت، ولا بد أن أكتب ما قالت ولا أغيِّر فيه شيئًا، ومع بساطة كلامهم إلا أنه يحوي من البلاغة الكثير، فقد أوصت الأم مرة أن أكتب

لولدها: "ليلنا ضلمة من غيرك يا قلبي وأنت القمر"! شعرت حينها أنها تقول الشعر الذي نتعلَّمه في المدرسة (شبَّهته بالقمر الذي يحتاج إليه ليلهم)، وأخرى طلبت أن أكتب لابنها بمناسبة زواج أخيه: «فرحتنا بأخيك كبيرة، لكن ما لها طعم من غيرك»، وهذه زوجة أمْلَت زميلًا لي: اكتب له «أنت قبُّوص مفروكة يا أبو محمد» (المفروكة أكلة طازجة من المعجَّنات تصنعها الأمهات، والقبُّوص ملء الكف منها، كناية عن المحبَّة). هذا غير مئات القُبل والأحضان التي يتم إرسالها، ولم تكن هناك أشكال تعبيرية كالموجودة هذه الأيَّام في وسائل التواصل، فكان يتم التعبير عنها كتابةً بالتفصيل.

وبعد أن شاء الله لي أن أتذوَّق الغُربة، ويشاركني فيها أسرتي وأهلي وأحبابي، تذكَّرت كل ذلك، واستنكرت من نفسي التعجُّب، فالغربة كبيرة على الفهم، واسعة عن الإدراك؛ إلَّا لمن خاضها وذاق طعومها في اختلاف أحوالها، وبالطبع ليس المسافر فقط هو من يعاني الغربة، ولم يكن هو المغترب الوحيد حين قرر السفر؛ فيغترب بغربته غيره ممن هم قريبون منه محبُّون له، ومن كان يظنُّ هو -المغترب- أنَّ الحياة بغيرهم لا تكون.

وفي أوقات نشاط العقل -وما أكثرها- وتكون في أوقات الراحة والسكون وطلب النوم، حيث التفكير والخيال والإبداع الذي قد يكون في اللاشيء، المهم هو أن يُحرَم المغترب من النوم في أشد أوقات الحاجة إليه، في هذا الوقت يسرح الخيال، وأجدني أعيش بين أحلام اليقظة، ومرارة الواقع.

تتوارد على العقل أسئلة حول الغربة، وخيالات عن المغتربين، وافتراضات عن البعض ماذا لو ذاقوها وعاشوا مرارتها؟ كيف يتعاطون معها ويعبِّرون عنها؟

ثمَّ هل الغربة قديمة أم أنَّها شيء حديث؟ هل كانت موجودة بنفس المشاعر والأحاسيس؟ ثمَّ هل تكون الغربة عن المكان أم عن الأشخاص؟ أم عن الوطن بمفهومه الواسع؟ وكيف لمن كانوا يعيشون بالخيام في صحراء قاحلة أن يشعروا بالغربة حين ينتقلون إلى خيام أخرى في نفس صحرائهم؟ وما هذا المحرِّك الهائل لمشاعرهم الذي نتج عنه كل هذا الإنتاج الغزير عن الغربة وأحوالها؟

قالوا عن الغربة إنها البعد عن الأوطان، وقالوا إنها تشير للمشاعر السلبيَّة المرافقة للانقطاع عن الأهل والأجواء المعتادة، لذلك فلكلٍّ غربته، فقد يشعر بالغربة من ينتقل من بلد إلى آخر داخل الوطن، مثل عمَّال الترحيلة المهمَّشين الذين تناولهم يوسف إدريس في روايته (الحرام)، ورأيناهم يعيشون الغربة بكل تفاصيلها -على الرغم من أنهم لم يتركوا وطنهم الكبير-، فحملوا الزاد وقطعوا الطريق، ووصلوا لبلدة غريبة وأناس عاملوهم معاملة الغريب، وذاقوا محنة الغربة وقسوتها، بل وواجهوا عنصرية بغيضة من بعض أبناء البلدة التي اغتربوا فيها.

نفس الحال مع من تضطرُّه ظروف الوظيفة لترك مكانه والسفر لآخر، وكذلك من تتزوَّج في بلد آخر أو محافظة أخرى، ولكنَّ كل ذلك غربة شعوريَّة مؤقتة، لا تلبث أن تزول حين يكيِّف أحدهم ظروفه تبعًا لمعيشته الجديدة.

الغربة كلمة قاسية، تتحرَّك النفس وتتحرَّق بمجرد سماعها، وتختلف الآراء حولها بين رافض لها محذِّر منها، وراغب فيها مشجِّع عليها، وكلٌّ حسب أحواله وظروف وطنه، ونحن هنا نتناول الغربة من الزوايا كافة -بقدر الإمكان-، وقد يكون حديث المشاعر والذكريات هو الغالب.

فالغربة (والاغتراب والتغرُّب) -مهما اختلفت التسمية- تُعدُّ من أكبر محركات المشاعر ومثيرات الشوق ومولِّدات الحزن في نفوس من ذاقها وتجرَّع ويلاتها، لذلك فقد أخذت الغربة من حوارات العامَّة كثيرًا، كما وُجِدَت في نقاشات الأدباء والصوفيين والفلاسفة واللغويين.

قالوا عن الغربة: إنَّها «النزوح والبعد عن الأوطان لأسباب سياسيَّة أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو دعائية».

ولم يتغيَّر معنى الغربة عن ذلك في واقع الناس، وعلى الرغم من مرور الأيام والأزمان وتغيُّر الأماكن والجنسيات، لم يختلف عن معناها في المعاجم، إلا مثل تعريفهم للزلزال واختلافهم في تقدير نتائجه وآثار توابعه، فالزلزال في تعريفهم ثابت لا اختلاف حوله، لكن النتائج تتدرَّج من خفيفة إلى قويَّة إلى مدمِّرة وكارثيَّة، وبالتالي تكون النتائج على قدر الاستعداد وردِّ الفعل.

بلادي، وإن...

يخوض الإنسان في مراحل حياته المختلفة كثيرًا من الامتحانات، ويعترضه الكثير من أنواع الابتلاءات، ولعلَّ من أصعبها وأشدها عليه الغربة أو (الاغتراب والتغرُّب).

فلنتفق في البداية على أنَّ الحياة كلها تعب ومشقة، وأنَّ الله قد خلق الإنسان في كَبَد، وأنَّ الغربة قاسية حتّى وإن كانت داخل الوطن، ومهما تنوَّعت أسباب الغربة تظلُّ غربة حتى النهاية، ولنتفق أن أقسى أنواع الغربة هي التي نُدفَع إليها ونُجبَر عليها، فتكون أقرب إلى النفي، فليس كل غريب قد اختار غربته، فقد يكون الدافع انعدامَ الحيلة أو إلحاح الحاجة أو قهر الرجال.

وكيف ننكر الشعور بالغربة والحنين للأوطان وقد عَلِمْنا قول الرسول ﷺ عند خروجه من وطنه مكة: «ما أطيبك من بلد وأحبّك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»، وهو القائل أيضًا عن السفر إنَّه قطعة من العذاب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ وَجْهِهِ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ".

قال النووي في شرح مسلم: "معناه يمنعه كمالها ولذيذها لما فيه من المشقَّة والتعب ومقاساة الحرِّ والبرد والخوف، ومفارقة الأهل والأصحاب وخشونة العيش".

وكيف يتعجَّب البعض من وصف الغربة بالقسوة والصعوبة، وكان من حاله وسنَّته ﷺ عند كل سفر -والسفر جزء يسير من الغربة- أن يطلب من الله التيسير وسرعة انقضائه، ويدعو الله أن يرعاه في سفره، وأن يخلفه في أهله وماله، ثم يستعيذ به سبحانه من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب.

نعم، فلا مكان على وجه الأرض أحبُّ للإنسان وأجمل من الوطن الذي وُلِدَ فيه ودرج على أرضه ونشأ بين أهله، هنا ضحكُه وبكاؤه، هنا طفولته وصباه، فيه ذكرياته وصحبته ومنبت مشاعره ومنتهاها، مهما ابتعد وجذبته الجواذب خارج وطنه، مهما كان وطنه قاسيًا عليه وقاتلًا لطموحه، مهما ادَّعى الاستغناء عن وطنه وتصنَّع كراهيته، فهو مثل الطفل الذي يغضب مِن أمِّه، وقد يبكي ويصرخ ويضربها شاكيًا منها، ومتَّهمًا إيَّاها بالقسوة، ويتصنَّع خصامها، وفي داخله يتمنَّى لو يغوص في حضنها فينتهي بكاؤه، وتذهب شكواه وتعلو وجهه أجمل ابتسامة، وتسكن السعادة قلبه، فهو حين يبكي فذلك بكاء الشوق لحضنها، وداخل صرخته المسموعة صرخة مكتومة يقول فيها: أمِّي، لا تتركيني.. وفي تصنُّعه الخصام طفل يريد حنانها وحبَّها، ولعلَّ ثورته عليها تخرج منها هذا الحب وتظهر ذلك الحنان، وحينما كان يشكو فإنما أراد أن يشكو غيابها أو بعدها عنه بوصفها الأم التي لا تحلو الحياة إلا في وجودها، وتضيق وتوحِش بعيدًا عنها.

الحقيقة أنَّ الشوق للأوطان والحنين إليها فطرة في البشر، عبَّر عنها الطائيُّ بقوله المشهور:

كم منزلٍ في الأرض يألفُه الفتى وحنينه أبدًا لأولِ منزلِ

والشوق والحنين هنا ليسا مرتبطين بحالة اجتماعية أو مستوى معيشة معين -داخل الوطن أو خارجه- فحبُّ الوطن لم يكن يومًا مشروطًا، بل هي كما قال الشاعر:

بلادٌ أَلِفناها على كلِّ حالةٍ وقد يؤْلَفُ الشيءُ الَّذي ليسَ بالحَسَنْ

وتُستعذَبُ الأرضُ التي لا هَوَاْ بها ولا ماؤُهَا عَذْبٌ.. ولكنَّها وطَنْ

وقد صوَّر الجاحظ هذه العاطفة الفطريَّة نحو الوطن فقال: "إني فاوضت بعض من انتقل من الملوك في ذكر الديار، والنزوع إلى الأوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلد إلى آخر، أمهد من وطنه، وأعمر من مكانه، وأخصب من جنانه، ولم يزل عظيم الشأن، جليل السلطان.. فكان إذا ذكر التربة والوطن، حنَّ إليه حنين الإبل إلى أعطانها".

وإن لم يكن حبُّ الوطن فطرة لما اشتاق الصحابة لوطنهم على الرغم من كل ما لاقوا فيه، وقد أبدلهم الله خيرًا منه عيشًا وأكثر منه أمنًا، وبدأت تطيب لهم الحياة في وطنهم الجديد بجوار رسول الله ﷺ! ولعلَّنا نذكر بلالًا -رضي الله عنه- حين كان يفيق من الحُمَّى فيتغنَّى في سكراتها بوطنه، ويمنِّي نفسه بالرجوع إلى أماكن ذكرياته:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً   بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ

وهل أردنَّ يومًا مياه مجنَّةٍ   وهل يبدونَّ لي شامةٌ وطفيلُ

لعلَّنا حين نريد الحديث عن الغربة والأوطان لا نجد أرقَّ من كلام الشعراء، فالعواطف الجيَّاشة تحرِّكهم مثلما تحرِّك الجميع، لكنَّ اللغة تسعفهم بما لا تسعف غيرهم، والألفاظ توافقهم كما لم توافق غيرهم، فيعبِّروا بما لا يستطيعه سواهم، في جزالة من اللفظ ووضوح في المعنى، وأداء للغرض.

فحينما يحدِّثك بعضهم عن قسوة الوطن، وصعوبة العيش فيه، وظلمه لأهله، تستحضر بيت الشعر المشهور للشريف قتادة أبي عزيز، والمنسوب لأبي فراس الحمداني أو لغيره، البيت الذي يشرح معنى حبِّ الوطن، وأنَّه في ضمير الناس غير مرتبط بأفراد خرجوا عن العدل، ولا بظلم وقع من بعضهم على بعض:

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة   وأهلي وإن ضنُّوا عليَّ كرام

وإن أردتَ الاستزادة من المعنى، تجد فوزي معلوف كذلك يزيدك من الشعر أبياتًا ويؤكِّد لك أكثر، أنَّه مهما أصابك منه فهو في الأخير وطنك، ومهما أنكرك الأهل وآذوك فهم أهلك الذين لن تتبرَّأ منهم، (والدم لن يصير ماءً) فكما قال:

مهما يَجُرْ وطني عليَّ وأهله   فالأهل أهلي والبلاد بلادي

ليوضِّح ما قد يكون سببًا عند البعض في كراهية الوطن والتبرُّؤ من الأهل، ويؤكِّد أنها -مهما يحدث- بلده، وأنَّهم -مهما يظلمونه- أهله.

حين يتساءل البعض عن السبب في هذا الشوق وذلك الحنين للأوطان: هل هو التراب والجدران والعمران؟ ففي الغربة أحدث وأفضل منها، ولم يكن في حياة الصحراء عمران مع أنهم تغنوا كثيرًا في ذات المعاني.

أَم الرزق والخير وما نتذكَّره في الوطن؟ فتحنَّ القلوب وتدمعَ الأعين؛ فالرزق في الغربة أوفر والمال أكثر، ولذلك يغتربون.

تعدَّدت الأسباب وتنوَّعت الدوافع، وحتَّى لا نطيل البحث في هذا الباب، تخيَّل أنَّنا نتوجَّه بالسؤال إلى أصحاب التجربة، من اختبروا الغربة وخاضوا غمارها، فنبدأ بأحد شعراء الأعراب البسطاء فيجيب بأنَّ

السبب هو ذكريات الطفولة البريئة وفتوَّة الشباب:

ذكرت بلادي فاستهلَّت مدامعي	بشوقي إلى عهد الصبا المتقادم
حننتُ إلى أرضٍ اخضرَّ لها شاربي	وقُطِّع عنّي قبل عقد التمائم

وحين نتوجَّه بالسؤال لشاعر آخر، هو ابن الرومي، الشاعر الكبير المعروف الذي تغرَّب كثيرًا، لكنَّه يتشوَّق إلى بغداد، حيث مراحل العمر والصبا والشباب، فيقول بعد أن طال مقامه بعيدًا عنها:

بلدٌ صحِبْتُ به الشبيبة والصِّبا	ولَبِسْتُ ثوبَ العيشِ وهْوَ جديدُ
فإذا تمثَّلَ في الضميرِ رَأيتُهُ	وعلَيهِ أغصانُ الشَّبابِ تمِيدُ

وقد يكون الحنين من وجهة نظر أخرى، لأشخاص وأماكن وذكريات وهويَّة، وتحضر في الذهن لحظات الوداع، حيث يسافر البدن ويبقى القلب، وذلك ما يذكره الشاعر السوري مصطفى قاسم عباس:

أحنُّ إلى أبي وأخي وأمِّي	وأذكر يومَ أزمعتُ الرحيلا
تقول الأمُّ يا طفلي سلامًا	وربُّ الكون يهديك السبيلا
إذا بعدت ديار الحيِّ عنِّي	غدا قلـبي بســاحــتهم نزيلا

أمَّا الشاعر السعودي ابن معصوم المدني، فلخَّص الأمر في مداخلة رائعة مفيدة، حيث أبدع في الحديث عن فراق الأصحاب، فما أجمل تعبيره عن حال المغترب، حين وصفه بعد فراق الصحبة والأهل، حيث السهر والحزن المقيم والشوق الدائم، وافتقاد من تطيب بهم الحياة، فيقول:

هل يعلم الصحب أنِّي بعد فرقتهم	أبيت أرعى نجوم الليل سهرانا
أقضي الزمان ولا أقضي به وطرا	وأقطع الدهر أشواقًا وأشجانا

ولا قريب إذا أصبحت في حزن	إنَّ الغريب حـــزينٌ حيثما كانا

ثم نتخيَّل لقاءً مع عليٍّ بن الجهم، ليحكي تجربته ويوضِّح رؤيته، فيظهر إشفاقه على المغتربين الذين فارقوا أوطانهم، وعلى أحبابهم أيضًا، فما نفعتهم غربتهم ولا أغنت عن أحبابهم، وكيف تتغير أحوال الجميع إلى الأسوأ، لكنَّه قدر الله، ويكاد يبكي على حالهم:

وا رحمتا للغريب في البلد	النازح، ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا	بالعيش من بعده ولا انتفعا
كان عزيزًا بقرب دارهم	حتى إذا ما تباعدوا خشعا
يقول في نــأيه وغربتــه	عــدلٌ من الله كــلُّ ما صــنــعــا

ونعود إلى العراق، وما أكثر الحنين لأرضها، والشوق لدجلتها وفراتها! ومع كلمات الشاعر العراقي محمد مجدي الجواهري، يعبِّر فيها عن ألمه واشتياقه إلى الوطن الذي فارقه كرهًا:

يَا دِجْلَةَ الخَيْرِ يَا نَبْعًا أُفارِقُهُ	علَى الكَراهَةِ بَينَ الحينِ والحينِ
وَدَدْتُ ذاكَ الشِّراعَ الرِّخْصَ لو كَفَنِي	يُحاكُ مِنْهُ غَدَاةَ البَيْنِ يطوينِي

تحدَّث الكثيرون عن الغربة، وظهرت على الساحة الكثير من الأعمال الفنِّية التي تتناول الغربة، ولكن الغربة لا يعبِّر عنها أحد مثل مَنْ ذاقها، وإنَّ بعضهم قد أعجبه مذاقها، وذهب يحكي عنه ويمدحه ويدعو الناس ليتمتعوا مثله بذلك المذاق، وهناك من جرَّب الغربة ووجدها نارًا تحرق، فأخذ يحذِّر الناس منها، ويبقى الحُكم لكل فرد بعد تجربته الشخصية.

ولعلَّ من أفضل ما انتشر من القول تشجيعًا على السفر والغربة، قول الإمام الشافعي:

تَغَرَّبْ عَن الأَوْطَانِ في طَلَبِ الْعُلا	وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَةٍ	وَعِلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

الفصل الثاني

وتــبــدأ المـعــانــاة...

غريبٌ يقاسِي الهمَّ في أرض غربةٍ

فَـيـا ربِّ قـــــرِّب دار كـلِّ غـريـب

الغربة في واقع الأمر معاناة تبدأ ولا تنتهي، تبدأ من التفكير فيها والعزم عليها، فعلى الرغم مما يكون ظاهرًا للبعض، من فرحة وسعادة مَنْ عزم على الاغتراب، لأنَّه حصل على فرصة عمل أفضل، ومصدر رزق أوسع، ومكانة اجتماعية أرقى، أو لأنَّه أخيرًا يستطيع الخروج من ذلك المكان الذي لم يعطه حقَّه ولم ينزله قدره، ومغادرة المكان الذي عامله بقسوة وأمعن في ظلمه.

مهما يظهر من الفرحة فخلفها حزن مكبوت على فراق ذكرياته وذويه، وقلق لا يخفى من مستقبل مجهول، وخوف من أرض غريبة قد تنكره، وبحث مستمر عن طمأنينة يوشك أن يفقدها، وتشتعل في النفس أسئلة بكل أدوات الاستفهام الموجودة باللغة، ولك أن تتخيلها: من؟ متى؟ أين؟ كيف؟ ماذا؟ هل؟ لماذا؟ وتود النفس أن تخترع أدوات أخرى لاستفهامات قد تجدُّ في مستقبل الغربة القادم.

الفرحة الظاهرة ونشوة السفر والتغيير تجعلان المغترب كالمريض في أول لحظات التخدير، بين اليقظة وغياب العقل، يعلم ما هو مقدِم عليه، ويسلِّم أمره لله، وأمله أن تنجح الجراحة فيعود منها وقد زالت أسباب شكواه، وليس معنى ذهاب الألم مع التخدير أن معاناته قد انتهت، بل قد تكون تلك بدايتها فقط، حتى في أثناء تخديره تعمل المقصَّات وأدوات الجراحة في تقطيع أجزاء من جسمه أو استئصال أجزاء أخرى أو تغيير جزء بآخر، وعند نجاح العملية لا يتعافى بين يوم وليلة، بل يحتاج إلى جزء من عمره ضريبة العودة لعافيته، وإن عاد فلا يمكن نكران أن ثمَّة تغييرات قد حدثت وتظهر آثارها مع قابل الأيام.

بعد البحث والسعي لفرصة السفر؛ رغبةً في عمل كريم يوفِّر مستوى اجتماعيًّا لائقًا، ولا بأس من الأحلام، المال والغنى، الشقة والمهر والزواج، تسديد الديون وسدِّ احتياجات الأسرة وتوفير متطلباتها، عام أو عامان فقط وأعود، وكلَّما صار شيء من الأحلام حقيقة تولَّدت أحلام جديدة، الثراء ومظاهره، معيشة أفضل، ها قد جربت الغربة وظهر خيرها، ولو كنت في بلدي ما تحقّق شيء ممَّا هو متاح الآن، وهكذا فماء

الغربة مالح، كلَّما شرب منه المغترب ازداد عطشًا، والأمر هنا ليس للتعميم ولكنَّه الغالب والأكثر انتشارًا، ويصير شعاره غير المعلَن:

إذا نلتَ في أرضٍ معاشًا وثروةً فلا	تكثرنَّ فيها النزوعَ إلى الوطن
فما هي إلا بلدةٌ مثل بلدةٍ	فخيرهما ما كان عونًا على الزمن

لذلك نقابل من يقول كنت أريد الغربة لعامين، وها قد أمضيت عشرين أو ثلاثين سنة في الغربة، وهناك من يقضي أكثر من ذلك.

تبدأ المعاناة وتستمر في التجهيز للسفر ومتطلبات الإقامة، قلق الأحباب، أين ستقيم؟ وكيف تأكل؟ ومع من ستتعامل؟ ماذا يناسبك من الملابس والأغراض؟ تظاهر بالفرحة من الجميع للخير القادم، تمَّ تجهيز حقيبة السفر، تطمين متكرِّر يدلُّ على قلق موجود: لا تقلقوا.. فترة وأعود.. لا تقلقوا.. فزملائي سبقوني ويبشرونني بالخير، لا تقلقوا.. الجو هناك رائع والطعام متوفر وأسعاره في المتناول، لا تقلقوا.. بمجرد وصولي سأحدِّثكم لأطمئنكم أكثر، لا تقلقوا.. سأرسل لكم لتقيموا معي... لا تقلقوا تعني أنا أكثر منكم قلقًا.

أنت الآن على نظام (أخيرًا سأسافر).. دقائق وتبدأ في تفعيل الباقة على نظام (هدوء.. قد بدأت غربتك) فما إن تبدأ خطواتك الأولى للغربة حتى تصيبك هزَّة ورعشة داخلية، تتحرَّك بعدها المشاعر لتستعيد ما تعمَّدتَ أنت تهوينه؛ كجزء من الخداع الإستراتيجي لنفسك وذويك لقبول فكرة الغربة، من الآن لن ترى أمَّك ولا أباك ولا إخوتك، لن تهنأ بوصال الأقارب، لن تقابل أصدقاءك وزملاءك وأصحابك (الأنتيم)، لم يعد متاحًا الذهاب للنادي أو الكافيه ومشاهدة المباراة أو ممارسة اللعب، والمزاح مع الصحبة ومكايدات ما بعد المباراة مع الشلَّة، وأنت أيها المسكين قد فارقت الصحبة الطيبة، ولن تلتقوا بعد الصلاة للحديث والتواصل، لن تجدوا من أحبابكم سوى الصوت وصداه، أو صورة من خلال مكالمات الفيديو المتقطعة التي تطمئن لكنها لا تشفي غليلًا.

في هذا الوقت ومع أولى خطواته للطائرة -أو وسيلة السفر المتاحة- يريد أحدنا أن يصرخ ويطلق العنان لدموعه، وإن كنَّا قد درسنا في مادة (العلوم) عمليات التبخُّر والتكثُّف، فنحن هنا في عمليَّة مشابهة، من الممكن أن نطلق عليها: التدمُّع، وهي تحوُّل المشاعر، وهي أشياء غير مادِّيَّة، إلى سائل دافئ هو الدموع، وفي كثير من الأحيان يحدث التدمُّع ولا تنزل الدموع، بل تجمد في عين صاحبها، لأنه رجل وعيب عليه أن يبكي (هكذا الأعراف عند البعض)، أو منعها حرصًا على عدم إثارة أحبابه الذين يتماسكون من أجله، الآن يبكي كطفل في أوَّل يوم له بالمدرسة، كان فرِحًا منتشيًا يلبس ثياب المدرسة من الليل، وينتظر للصباح، ثم حين ذهبوا به تأكَّد أنَّه سيبتعد عن أمِّه وعن حياته التي اعتادها، سيتحوَّل إلى

مكان غير بيته (وطنه)، صحبة جديدة لم يرَ وجهًا منها قبل ذلك، هنا يصرخ ويجري محاولًا الهروب من غربته التي بدأت، ويقلب الدنيا بكل ما أوتي من قوة، ومع الوقت يتكيَّف مع الوضع الجديد، لكنه لا ينسى أبدًا ذلك اليوم.

في الطريق، بينما كان يخطِّط للنوم طوال الطريق، حيث إنّه لم يذق طعم النوم منذ أيام، فقد تمَّت معاملته كعريس قبل أيَّام من عرسه، كلَّما أراد النوم نهروه، وأخبروه بأنَّه بعد الفرح سيشبع نومًا، فليس أمامه إلا العمل والنوم، هكذا كانوا يُمنُّونه، وكان الخبر كاذبًا.

يُفاجأ في طريق غربته بأنَّ عقله يعيش أكثر لحظاته نشاطًا وحضورًا وعملًا، وهذا ما سوف يعتاده بعد ذلك، فقد خرج عقله من هدوئه إلى صحوته، والمتعِب حقًّا أنَّ صحوة العقل في الغربة تأتي في الغالب وقت حاجة الجسد إلى النوم والراحة.

في الطريق يذكر أهله فردًا فردًا، وتتراءى أمامه صور أحبابه لا تغيب منهم صورة، كما تشخص أمامه صور من لا يحبُّهم ومن كان يتمنَّى فراقهم وكان يسأل نفسه دائمًا: متى يغورون من أمام وجهي؟! استحضرها العقل الآن من باب الاستفزاز فقط، وتفتح له نافذة يوتيوب مجانية تعرض فيها كل مواقفه، ويتمُّ الإعلان عنها باستمرار وإلحاح كأنها إعلانات مدفوعة.

يستحضر المواقف التي مرَّت به منذ أن وعى، المؤثِّرة منها وقليلة الأثر منها بل والتافهة، ولأن عقله صار مستيقظًا فهو ينتقي له المواقف التي لها وقع خاص، تلك التي أثَّرت فيه إيجابًا أو سلبًا، لتترك في النفس الكثير من الحزن والألم، لتنكأ الجرح الذي يحاول تجاهله، فينتابه الضيق، لأنه لم يستطع الاستمرار في اصطناع الفرحة بغربته.

انتهت الرحلة وبدأت الغربة وتستمر المعاناة، الوجوه غريبة واللهجة مختلفة، والأصوات غير التي تعوَّد سماعها، والعبارات والكلمات تلطمه وتؤكد له أنه قد صار غريبًا، في مكان يُنعَت فيه بـ (الغريب).

وكأن المسكين لا يعلم أن هذا اللفظ ملتصق به حتَّى وإن أقام عشرات السنين، وقد حكى أبو العبَّاس محمد بن إسحاق السرَّاج عن سبب عودته من الغربة حين سألوه: "ما الذي حملك على الخروج منها؟" قال: "أقام بها أخي إسماعيل خمسين سنة، فلما تُوفِّي ورفعت جنازته سمعت رجلًا على باب الدرب يقول لآخر: من هذا الميت؟ قال: غريب كان هاهنا، فقلت: إنَّا لله، بعد طول مقام أخي بها، واشتهاره بالعلم والتجارة يقال غريب كان هاهنا، فحملتني هذه الكلمة على الانصراف إلى الوطن".

الآن بدأ طعم الغربة يتسرَّب إلى الحلق، هذا الطعم الذي سيرافق المغترب مع كل موقف يذكِّره بغربته، ذلك الطعم الموجود منذ البداية، لكنه كان مستترًا تحت وقع مذاق نوع من العلكة يتناولها العازم على الغربة في أول غربته، إنَّه مذاق نشوة السفر ومكاسبه والعمل والمال والتنزُّه التي يرددها اللسان كثيرًا.

وفي محلِّ السكن ومع تفريغ الحقيبة تجده يكلم نفسه: هي ملابسي لكن لماذا أشعر بأنَّها صارت غريبة؟ هل لأنَّها فارقت الأيدي التي كانت تغسلها وتكويها وترتبها؟ أم لأنَّها لم تعد في متناول مَنْ يُبدون

ملاحظاتهم عليها بعد أن أرتديها؟ لن أسمع: "القميص الثاني أفضل على هذا البنطلون.. الجو حار.. اخرج بالتي شيرت.. الجلابية هتاكل منك حتَّة.. هذه تحتاج إلى المكواة مرة أخرى.....".

وحين يريد أن يتبلَّغ ببعض الطعام، يخرج ما أوصته به أمُّه أن يخرجه ويأكل منه أوَّلًا، يخرج هذا الطعام فيجده يفتقد (النَّفَس) الذي يعطيه المذاق الطيب ويجعله شهيًّا كما هو دائمًا، يفتقد اليد التي تقدِّمه والفم الذي يدعو بالهناء والعافية، نعم، فالطعام من أيدي الأحباب يكون أشهى حتى لوكان لقيمات جافة، وفي الغربة مهما كانت قيمته ونوعه فهو فقط لسد الجوع والتقوِّي على المعيشة، و(لِيُقِمْن صلبه).

النهار غير النهار، والليل أقسى مما كنت أتصور، كنَّا نتحمَّل تعب العمل ومشقته بالنهار، ونغسله ونزيله من على أجسامنا باللقاء ليلًا، أفتقد نفسي التي كانت في وطني، بمرحها واجتماعياتها، بانطلاقها وجنونها، أفتقد المساء وسط أهلي وأحبابي، أفتقد صحبتي ورفاقي والسهر معهم، والرجوع متأخرًا إلى البيت في صمت، والمشي على أطراف الأصابع حتى لا يستيقظ الحاج صاحب البيت -كما كنا نقولها له على سبيل المزاح- فيشنِّف أذنيَّ بكلمات كنت أتجنَّب سماعها ولكنِّي الآن أفتقدها وأفتقد قائلها والشامت فيَّ على إثرها.

أفتقد وطني، أرضه وسماءه، أجواءه وطقسه، برودة لياليه وسخونة أحداثه، أفتقد حضنه على الرغم من قسوته عليَّ وعلى أحبابي، أرغب في أن أصرخ: والله أحبك.. والله وحشتني.. أريد الرجوع لكنِّي أخاف أن يقولوا: «عيِّل ولم يستطع الابتعاد عن حضن أمه»، وهذا ليس عيبًا، لكن فليقولوها كاملة: «لم يستطع الابتعاد عن حضن أمِّه، ولم يقدر على فراق وطنه»، لا أراها عيبًا على كل حال، فلا عيب في الأسماك إن اختنقت خارج الماء، ونحن بشر من لحم ودم ومشاعر، لكنَّنا مثل الأسماك، نفوسنا تأبى الراحة إلا في مكانها، وأرواحنا مرتبطة بالتراب والبيوت والشوارع والوجوه.

ويستمر الحوار داخل المسكين، هل ما نحن فيه غربة الأجساد أم غربة الأرواح؟ نعم، هي غربة الأجساد، فقد سافر الجسد واغترب، وهي أيضًا غربة الروح، حيث أبت الرحيل وفارقت الجسد، لتبقى في الوطن، ولا ينتهي الحوار بينه وبين نفسه، لكنهما -هو ونفسه- يتَّفقان على تأجيله لوقت آخر.

يرغب في الاسترخاء بعد إفراغ الحقيبة، فقد جاء وقت النوم، يتَّجه إلى سرير يتوهَّم فيه الراحة والنوم الهادئ والأحلام الرائعة، لكنه سيُفاجأ بغير ذلك، لأنَّ من أعدَّه ورتَّبه ليس أمًّا ولا أختًا ولا زوجة، ليس فيه الحنان والشفقة والدعاء بنوم العوافي، ولا يُتوقَع مجيء أحدهم ليراقب نومه أو يجلب له كوبًا من الماء، أو يطمئن على أنَّه لن ينام جائعًا فيعرض عليه تجهيز العَشاء أو يأتي له بلقمة قبل أن ينام، أو يتأكَّد من وجود الغطاء الكافي.

يضع رأسه على وسادة قد تكون أكثر نعومة من وسادته في الوطن، لكنَّها لا تجلب النوم مثلها، بل كأنها أحد اكتشافات العلم الحديث لتنشيط الذاكرة، ويبدأ أحد أطول عروض الصوت والضوء من داخل

مسرح عقله، العروض كثيرة وجاهزة، والشخصيات حاضرة يدفع بعضها بعضًا، والمواقع مبنية في خياله تنتظر من يملؤها، ضوضاء صامتة لا تنتهي.

فيتذكَّر الأب الصابر المكافح الناصح الأمين،َ منْ يتمنَّى له الخير ولو على حساب نفسه، من يرجو له الخير أكثر من نفسه، كيف ودَّعه؟ كيف هان عليه فراقه؟ لا بأس، فكل شيء يهون من أجل إكرامه وإكرام أمِّه وأسرته كلها، كم أخطأ وسامحه الأب! كم أفسد وأصلح أبوه من خلفه! كان الناس يتساءلون أحيانًا بسبب معاملة الأب لابنه: مَن فيهما الأب ومَن فيهما الابن؟ مَن يطلب رضا مَن؟!

يذكر يوم طلب طقم الكرة للمشاركة في دورة رمضان، ولم يكن يعلم أن والده ليس معه المال، هكذا الأبناء؛ لا يعلمون لثقة في نفوسهم أن الأب يستطيع دائمًا، طلب ولم يقبل الوالد بكسرة نفس ابنه أمام زملائه، فيقصد أحد الأقارب في سلفة إلى أن يفرجها الله.

يذكر سهر الوالد عند (الترزي) –الخيَّاط– ليجلب له (جلَّابية) العيد، ويذكر حين ضرب أختًا له، يذكر كيف كان والده –رحمه الله– في قمة غضبه، قال له: "عندي ضفر البنت بــ(100) ولد"، ومشهد مرض الوالد ووصيته إليهم بحسن رعاية أخواتهم البنات، يذكر كيف كان الوالد يحبه ويرعاه ويخاف عليه، ويذكر كيف كان ضجره من والده لأنه يناديه باسم الدلع أمام أقاربه وأصدقائه.

عرض كامل عن أبيه، وصفاته ومواقفه التي لا تُنسى، لا ينتهي العرض، ولكن نداءً من الكواليس يأتيه (كواليس مسرح عقله)، أن وقتكم انتهى، وأنَّ عروضًا أخرى تنتظر.

وفي العرض التالي تحضر الأمُّ العظيمة الراضية أمامه بصورتها، هي التي حرمت نفسها من كل شيءٍ من أجله، يتذكَّر تضحياتها لأجلهم، قلبها الكبير وحبها العظيم لهم، حرصها على تربيتهم حتى بعد أن صاروا كبارًا في العمر، تذكيرها الدائم بصلة الأرحام، وزيارة المريض، ومساعدة المحتاج، والسعي في حاجة الناس.

الآن يسمع دعواتها له تملأ الآفاق، ويستحضر دفاعها عنه في أيِّ موقف كان فيه مدانًا أو غير مدان، يتذكَّر الآن والشوق إليها يملؤه، والحنين إلى تقبيل يديها يقتله، كانت ولا تزال الداعم والسند والحضن الحنون، يتمنى أن يشرب من يديها كوبًا من شاي العدَّة الفلَّاحي، نفسه تتوق للقمة من خبيزها، ويردِّد قول محمود درويش: "أحنُّ إلى خبز أمِّي، وقهوة أمِّي، ولمسة أمِّي".

ثمَّ يتذكَّر أخواته اللاتي هن أمُّه الثانية والثالثة والسابعة، سرُّه وراحته وقرة عينه، من كانت تقتطع من نفسها لترضيه، رسوله وسفيره المخلص إلى رضا الأب والأمِّ، والناصح والداعم في كل مراحل حياته، هنَّ ترمومتر السعادة أو الحزن على وجه الأم، فهي بخير ما دمن بخير، وإن اشتكت إحداهن تداعت لها الأم بالسهر والحزن حتى تزول أسباب الشكوى.

ولا تغيب أطياف الصحبة والأحباب، الذين ما كان يتخيل الحياة دونهم، من قال فيهم: "يكفيني من الدنيا وجودهم، كنت معهم وكأني وحدي، لا أعبأ بالكلمة ألقيها أن تُفهم خطأ، فقد كنت على يقين أنهم سيقلِّبونها حتى تكون على أفضل وجه، ويفهمونها هكذا لأنهم يعلمون مقصدي وإن أسأتُ التعبير،

اللعب والضحك والمزاح، المباريات والخروج و(الغيط)، الاجتماع في (الغيط) حول الذرة والفول السوداني المشوي وشاي الحطب، أوقاتي العصيبة ووقوفهم معي، بل أحيانًا وقوفهم نيابة عني كأنهم أب وأم وخال وعم".

أما لو كان المغترب زوجًا أو خاطبًا أو حبيبًا ومحبوبًا، فالأمر في عقله وقلبه أكثر زحامًا، والذكريات أكثر وجودًا. وتتلبَّسه هنا حالة الشاعر "ابن الأبَّار" الذي يبكي ويشكو من فراق أحبابه في وطنه بقصيدة رائعة، فيها يقول:

أَبَيْنٌ واشتياقٌ وارتياعُ؟	لقد حُمِّلتَ ما لا يُستَطاعُ
تملَّكني الهوى فأطعتُ قسرًا	ألاَ إنَّ الهوى ملِكٌ مطاعُ
وروَّعني الفراقُ على احتمالي	ومَن ذا بالتفرُّق لا يُراعُ؟
وليس هوى الأحبَّة غَير عِلقٍ	لديَّ فلا يُعارُ ولا يُباعُ
فَلِلعبَراتِ بَعدهمُ انحدارٌ	وللزفَرَات إثرَهُمُ ارتفاعُ
نأَوْا حقًّا ولا أدري أيُقضَى	تلاقٍ؟ أو يُباح لنا اجتماعُ؟

ويذكر كيف ودَّعوه جميعًا يرافقه دعاؤهم، وترطِّب له الطريق دموعُهم، وهنا قد لا يستطيع المسكين مقاومة سيل الدموع، لن يقاوم لأنَّه لا يريد أن يقاوم، لعله يجد في البكاء الراحة، ويرجو من الدموع برود القلب وسكونه، يبكي لأنه لا يملك شيئًا سوى البكاء.

يحكي أحدهم: سافرت لأوَّل مرة تاركًا أمِّي وزوجتي وأولادي، بعد أن ودَّعتهم ودخلت المطار، جاءني اتِّصال من أولادي للاطمئنان، ولم أكن أتخيل أنَّ البكاء سيمنعني يومًا من الحديث إليهم، بكيت كما لم أبكِ في أشد المواقف، ثمَّ تمالكت نفسي وحاولت الردَّ وغلبتني الدموع ثانيةً، فأوعزت لرفيق لي أن يردَّ ويخبرهم بأني ذهبت إلى دورة المياه، فطمأنهم وذهبت أنا لأكمل البكاء.

إنِّي الغريب فما أُلام على البُكا	إنَّ البُكا حسنٌ بكلِّ غريبِ

أخيرًا يستطيع أن ينام؛ ليس له مفر، لا بد من النوم، يحاول النوم وينام بعد توسُّلات لعقله أن يكفَّ عن ارتداء ثوب (جوجل) حيث البحث والعرض واستعراض الصور والمواقف والأشخاص، ينام لأنه مجبرٌ على النوم، مجبرٌ على عقد هدنة مع عقله الذي أعلن التحدِّي ليثبت له قوة الذاكرة –فطالما اتَّهمه بضعفها– ويعقد اتِّفاقًا مع سريره بعد أن صارا رفيقين على الرغم منهما، مثل زوجين أُجبرا على الزواج، وليس للناس منهما إلا رؤيتهما متوافقين ودعواتهم لهما (إن ربنا يهدِّي سركم).

ينام ليرى في الأحلام وطنه، وأحبابه، وحياته، يصحو وينام ويلجأ إلى الله، هنا يتيقن كلُّ مغترب أنَّ النوم في الغربة مثل الاستسقاء؛ يحتاج إلى صلاة وتضرُّع ودعاء.

يستيقظ بعد النوم المتقطع ليبدأ في تحقيق أحلامه، الصباح مختلف، والإفطار غير الإفطار، ينقصه الكثير، لكن خير بإذن الله، يخرج من مسكنه ليجد كل شيء مختلفًا، لن يقابل عند باب بيته من كان يقابلهم ويلقي عليهم السلام، لن يسمع الدعابة اللطيفة ولن يلقى الوجوه البشوشة والقلوب التي ترقيه من العين والألسنة التي تمطره بوابل من الدعوات الطيِّبات، لن يصطبح بمثل هذه العبارات التي اعتاد سماعها ومشاركة قائليها: "السلام عليكم يا عمي الحاج.. صباح الخير يا خالة.. الحمد لله بخير وفضل من الله.. بتسلم عليك والله.. بإذن الله أمرٌ عليه آخر اليوم.. ألف سلامة على الحاجة الكبيرة، أخبارها ايه دلوقتي؟ خلاص والله ما تضربه.. علشان خاطري.. اسمع كلام أبوك يا بني بلاش تغضبه... عنك يا حاجة أنا هاشيلها... بالتوفيق يا دكتورة عقبال العيادة.. أخبار الكلية ايه يا باشمهندس؟ انت اللي هتبني لي البيت لما أرجع من السفر... بينادوا على مين؟ الله يرحمها عيالها لسه صغار... اتفضل الشاي جاهز والله لتشربها... تعالى افطر الدنيا ما طارتش.. حاسب يا ابني على مهلك شوية الشارع مش لك لوحدك.. ألف مبروك يا رب تفرحوا بعيالهم.. هنشوف الماتش مع بعض ما تنساش... اتنين شاي وواحد سحلب للشباب هنا يا بني.. يلا نفرين ونطلع يا شباب.. ادخلي جوه وَسَع يا أستاذة....".

في يومه الأول في الغربة يعلم حقيقة الفراق، ويتأكَّد أنه أصبح غريبًا، يصارح نفسه: "نعم أنت بشحمك ولحمك، إن كل ما حولك غير ما تعرفه واعتدته، بعض الأعين تراقبك وتعلم أنك جديد في الغربة، بعضها يشفق عليك، وبعضها يشفق على بلاده منك ومن أمثالك، فأنتم من تشاركونهم في خير بلادهم، وبعضها يتظاهر بأنه لا يراك..."، ويتساءل في نفسه: «من الذي غرس فينا قبول الغربة يومًا ما والتطبيع معها؟ من الذي يجعلنا نبحث عن فرصة سفر وهي في الحقيقة فرصة غرق؟ غرق في الوحدة بعيدًا عن الوطن والأحباب، فيشعر أحدنا بشعور الأسماك عندما تكون النتيجة لبحثها عن الغذاء هي الخروج من الماء، فتختنق وتعلم أن مصيرها القادم ليس خيرًا من بقائها في الوطن».

ويحدِّث المغترب مَن حوله مِمَّن هم مثله: كيف خرجنا نبحث عن وطن بينما الوطن موجود وأكبر من كل الأوطان؟ كيف نخرج للبحث عن لقمة العيش في حين أن فتات خبزنا يكفي عشرات الشعوب؟ كيف هُنَّا على الوطن فأغلق في وجوهنا الأبواب؟ فخرجنا نبحث عن أبواب مفتوحة، رآنا الوطن عالة وعبئًا ورآنا الآخرون قدرات يجب أن تُستَثمر، ففتح لنا أبوابه ثم أملى علينا شروطه.

بدأت رحلة حياة جديدة، صار وصمه فيها (الغريب)، واسمه مخصص بوصف لا بدَّ منه، مقيم أو غريب أو ضيف، ويظل هكذا حتى يرجع، والعجيب في ذلك –كما قال أحدهم- أنَّه هو الذي يسعى لاستخراج الأوراق التي تثبت أنه غريب.

حياته الجديدة، بيده جزءٌ منها، والأكثر في يد الآخرين، انقطعت علاقاته بأحباب الوطن، إلا من صوت وصورة لا يغنيان عن حقيقة اللقاء، وكم من الألم يصيبه حينما يرى عائدًا للوطن! فيغبطه ويودِّعه ولسان حاله ينطق بما قاله عبد الرحمن الداخل:

أيها الراكب الميمِّم أرضي	أقري من بعضي السلام لبعضي
إنَّ جسمي كما علمتَ بأرضٍ	وفـؤادي ومالكيـه بـــأرض
قُدِّر البـيْـن بينـنا فافـترقـنا	وطوى البيْن عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ويردِّد مع القائلين قولهم:

غريب يقاسي الهمَّ في أرض غربةٍ	فيا ربّ قرِّب دار كلِّ غريب

نعم، فهو من الآن يقاسي من غربته، ويعاني وحدته على الرغم من زحام المكان، يحاول فهم الناس من حوله، لم يخطر على باله يومًا ذلك التباين الشديد في الأخلاق والقيم والسلوكيات، فالغربة مثل أنصاف الثورات؛ تخرِج من الناس أفضل ما فيهم، كما أنها تظهِر أحطَّ ما فيهم، تعطيهم الأمل ثم تقتله بالبطيء، تغير الأحوال لكنهم بعد فترة يتأكَّدون أن التغيير لم يكن للأفضل.

والغربة مثل سفينة تسير بسرعة في بحر متلاطم الأمواج، والناس عليها درجات ومراتب، والشيء الذي يجمعهم أنَّهم -بلا استثناء- ليسوا في مأمن، فحين يضطرب الجوُّ وتعلو الأمواج يخافون، ويكونون في أعلى درجات صدق الإنسان مع نفسه، حيث يصارح ولا يتصنَّع ولا يداري، ولكنَّ ردة الفعل تختلف، منهم من يرى أنَّ نجاته مرتبطة بالجميع، ومنهم من يقول: نفسي نفسي، ومن الممكن أن يدوس على من بجواره ليرتفع هو عن مستوى الماء.

تعب الجسد دواؤه معروف، لهذا فكلَّما كان الغريب مندمجًا في عمله وأشغاله هدأت معاناته قليلًا، لكنه هدوء يسبق العاصفة، تلك العاصفة التي تأتي مع كل موقف يستشعر فيه غربته وضعفه وقلة

حيلته، وهوانه على الناس من حوله، أو حين يتعرَّض لموقف يجعله يستطيع أن يؤلِّف كتبًا عن قهر الرجال.

وتدور الأيام وتمرُّ بطيئة، يودُّ الغريب أن يربطها في قطار سريع ليجرَّها وراءه، ويعفيهم من عدِّ الثواني والدقائق والساعات، كنت أظن أن ساعات الخدمة الإجبارية بالجيش هي التي يمارس الناس معها طريقة عدِّ الأيَّام وكتابتها على الجدران والأوراق وكل شيء يحتمل الكتابة، لكنِّي وجدت الغربة أشدَّ من الجيش وأقسى حياة، وأحوج للترقُّب والمتابعة بالعدِّ، فالأيام الأولى يكون العدُّ فيها تصاعديًّا؛ جئت يوم كذا، ومرَّ من أيَّام غربتي كذا، وحين يتحدَّد موعد الرجوع للوطن يبدأ العدُّ التنازلي: بقي لي كذا وأعود إلى وطني وأهلي وأحبابي، حتى لو كان موعد الرجوع قد حُدِّد بأعوام فلا يكون العدُّ إلَّا تنازليًّا.

وبمرور الوقت يزداد الغريب خبرة في مجاله، وشوقًا إلى نفسه التي كانت في وطنه، يشتاق أن يرى صورته في أعين الأحباب، وأن يعلم قدره على ألسنتهم، يشتاق أن يتعامل كصاحب مكان، كمواطن في وطنه، فيغضب بتلقائيَّة إن رأى ما يُغضبه، ولا يبلع غضبه لأنه فقط غريب، ويفرح حين يرى إنجازًا أو تقدُّمًا في مجال ما، ما إن يراه فيتحسر على وطنه ويتمنَّاه لأولاده هناك، ويتمنَّى لو كان في وطنه يشارك في بنائه وصنع نهضته وإعطائه خبراته وإبداعاته، ولو كلَّفه ذلك التنازل عن جزء كبير من الراتب الذي يحصل عليه في الغربة.

يشتاق إلى يومه الذي كان يقضيه في وطنه، فاليوم هناك مقسَّم إلى أجزاء وأعمال لا يغني بعضها عن بعض، ولا يطغى بعضها على بعض، فالنهار للعمل الأساسي الذي يدر عليه دخلًا معلومًا، وما تبقَّى من النهار يُستثمَر في شيء آخر، عمل إضافي أو مساعدة زميل، أو زيارة مريض، أو ممارسة هواية مثل لعب الكرة.

ثم يكون الليل لصلة الأرحام ولقاءات الأصدقاء، ومشاهدة المباريات، والسمر والسهر ودفء العائلة.

الأيام كلها متشابهة، لا يكاد يختلف يوم عن آخر، إلا فيما يربطنا بالوطن، تأتي الأخبار ويحضر الوطن، ففي هذه الأيام كنا نتجمع عند الحاجة الكبيرة، ومثل هذه الأيام كانت المواسم التي تجمعنا فيها موائد الطعام، وهذه مناسبة زواج كنا نلتقي ونتسامر فيها، وهذه حالة وفاة كنا نتشارك في الحزن والمشاعر، ومظاهر الحزن تعمُّ كل البيوت، ومرض عمي الحاج كل الشباب يتجمعون ويذهبون لزيارته جماعةً....

وهكذا تمضي الأيام، وتأخذ الغربة من عمر المسكين عامًا أو أعوامًا بعيدًا عن نفسه، حتّى يأذن الله له بالعودة لحضن الوطن... وقد تكون العودة مؤقَّتة تتلخَّص في إجازة لأيام، يتجهَّز الغريب للعودة، يريد أن يجمع الدنيا لأحبابه، ولكن كما يقولون: «العين بصيرة واليد قصيرة»، فيحمل من الهدايا ما تسعه قدرته، ويعدُّ الأيَّام كما كان يعدُّها لقدوم العيد.

الغربة قَهْرَة

من المأثورات التي كنا نسمعها دائمًا من جدَّاتنا في القرية: إن أوَّل (قَهْرَة) تدخل قلب الطفل هي يوم فطامه، والثانية هي أول يوم بالمدرسة، والثالثة مع أول يوم له مجنَّدًا بالجيش، العامل المشترك فيها هو الانقطاع، ولعلَّ الأولى مفهومة بشكل كبير، أمَّا الثانية والثالثة فمرتبطتان بالغربة، أوَّل يوم دراسة حيث يجرِّب الغربة ببعده عن كلِّ ما اعتاده، والانخراط في جوٍّ جديد ورفقاء جُدُد، كذلك أوَّل يوم له في الجيش حيث انقطع عن منبع الحنان والشفقة، وانتقل إلى حياة خشنة، وحُكم للآخرين عليه قد لا يكون فيه رحمة، وكما يقولون عنها: «حُكم النفس على النفس صعب».

ومن عايش هذه الأمور ويتذكَّرها الآن يجد أنَّ أهمَّ ما خرج به التلميذ في أوَّل أيامه، والجندي في بدايات جيشه، الصحبة والأصدقاء، فتجده يتحدَّث عنهم دائمًا ولا ينساهم، ومهما صار كبيرًا في عمره أو مكانته، فحكاياته عنهم لا تنتهي، حتى يسمعها الأحفاد وأبناؤهم، وذلك بالطبع يرجع لصعوبة المرحلة التي هوَّنها وجود هؤلاء.

رحلة البحث عن الثِّقات

وفي الغربة والبعد عن الأحباب تبدأ رحلة أخرى ليست أقل في المعاناة من غيرها، وقد تكون ضريبتها عند البعض فادحة وتكلفتها كبيرة، تلك هي رحلة البحث عن الثِّقات؛ عن الصاحب الثقة، ورفيق العمل الثقة، وصاحب البيت الثقة، ورفيق المسكن الثقة، والصنايعي الثقة في كل مجال، فهنا قد لا تشفع لك جنسيتك مع بني بلدك، ولا يشفع لك دينك ولا مهنتك ولا عمرك.

فالكثيرون يعدُّون الغربة بحرًا والمغتربين أسماكًا، فاقتنِص الفرصة ولا تفوِّتها، لأنَّك إن لم تأكل ستُؤكل، ولأنَّ (الغريب أعمى ولو كان بصيرًا) فهي الفرصة لاستغلاله بقدر ما تستطيع، وشعارهم -كما سمعتها من أحدهم- «اضرب الأعمى وخد غداه.. انت مش أحنَّ عليه من اللِّي عماه»! الكثيرون يفترضون فيك أنك تغرف المال من بحر، بينما هم فقط الغرباء (الشقيانين) الذين لا يجوز لهم التنازل عن الاستفادة منك في كل موقف، ولو عن طريق النصب والخداع.

يعاني المغترب كثيرًا ويجرِّب، فيلدغ حتى يخشى الحبل، ويحترق حتى ينفخ في الزبادي، إلى أن يمنَّ الله عليه ويرزقه بالطيِّبين، الذين يشفقون عليه، ويخلِصون له النصح، ويوفِّرون عليه كثيرًا، ويعاملونه كأخٍ مثلهم في نفس ظروفهم، والسعيد من رتَّب له البعض مع مثل هؤلاء الطيِّبين قبل سفره، فتكون بدايته آمنة وخسائرها قليلة، ومن أسعد اللحظات للمغترب أن يجد هؤلاء الذين يهوِّنون عليه حياة الغربة ويأنس إليهم، حتى لوكان غريبًا عنه من بلد آخر غير بلده.

يجازَى بالذي تجد القلوب	ويأنس بابن بلدته الغريب
وصادفني غريبٌ فالتقينا	وكلٌّ مساعد فهو القريب

والحكايات في هذا لا تنتهي، فهناك من يقابل الغريب ويبدي له الودَّ وهو صادق، فيقدِّم المساعدة والدعم، ويساعده في حل المشكلات التي تقابله في أول غربته، ولا يجعل المال والمنفعة المادِّيَّة أساس التعامل، بل الأخوَّة والإنسانيَّة و(الجدعنة)، فإن شكرته على صنائعه، قال لك: كنتُ مثلك، ورزقني الله أولاد الحلال الذين فعلوا معي ما لا أنساه، وعاهدتُ الله أن أفعل مثلهم إن أُتيح لي ذلك.

هؤلاء يسكنون القلب ويملكونه ولا يستطيع العقل نسيانهم، فالمغترب يشعر بقيمة الكلمة التي طمأنته في أوَّل أيَّامه بالغربة، ويقدِّر الدعم مهما كان قليلًا، حتَّى لو كان معنويًّا، فكيف لو كان مادِّيًّا يكلف صاحبه من وقته ومجهوده وماله، فكيف ينسى من أحسن مقابلته وقال له: لا تشيل هم.. لا تقلق.. الأمور بسيطة.. محلولة بإذن الله.. ثم خرج معه يبحث عن المسكن ويقترح عليه وينصحه عند شراء الأغراض ومتطلَّبات السكن والمعيشة؟ وقد يعطيه من ماله على سبيل القرض، أو يمنحه على سبيل الهديَّة.

وكيف ينسى حقَّ من جاء بسيارته ليقله من مكان إلى مكان، ويقضي له المشاوير ليكفيه ثمن المواصلات ومشقاتها، وهو بذلك يقتطع من وقته ووقت أسرته، وإنها تضحية في الغربة -لو تعلمون- عظيمة.

كيف ينسى رفيق العمل الذي أحسن استقباله ورحَّب به، وجلس معه ليوضِّح له طبيعة العمل والمديرين والزملاء، ثم وفَّر له ما يساعده على النجاح ولم يبخل به، وأعطاه من مجهوده وخبرته ما يوفِّر عليه عناء الشهور؟ أحسن نصحه ليجنِّبه ما وقع فيه هو قبل ذلك.

كيف ينسى المدير البشوش المتفاهم، الذي يأخذ للعمل حقَّه لكنه لا يظلم من يعمل معه، الذي كان قائدًا للمكان يحفِّز على العمل، ويشعِر موظَّفيه بالأمان، ويزيد كفاءتهم وخبراتهم؟ الذي يبدأ ملاحظاته بالشكر والدعاء لك على أعمالك وإنجازاتك وإخلاصك في العمل، ثم يغلِّف ملاحظاته ونصائحه بألطف العبارات: "لعلَّك نسيت.. جميل لكن الأفضل كذا وكذا.. لا عليك نعدِّلها معًا بإذن الله.. ليس خطأك وحدك كلنا مسؤولون ونتداركه بإذن الله....." وهكذا كلمات تجمع ولا تفرِّق، وتدعم ولا تحبِط.

ثمَّ إنَّه لا ينسى المواطِن صاحب البلد الطيِّب، الذي ينسيك بحسن معاملته وكريم معشره ذلك النوع العنصريَّ الذي يسيء لبلده قبل أن يسيء للغريب، لا ينسى تقديره واحترامه وكلامه الرائع عن دور المقيمين وعن مكانة أوطانهم، لا ينسى اعترافهم بإسهامنا في نهضتهم وما هم فيه من الخير.

وكم خلَّدتْ مثل هذه الصفات ذكرَ أصحابها، هؤلاء الذين كانوا وطنًا في الغربة، فمهما مرَّت الأيَّام وابتعدت الأماكن يظل الاسم يتردَّد مع سيول من الدعوات من المغترب وذويه، الذين تبقى أسماء هؤلاء الطيِّبين محفورة في ذاكرة الكثيرين منهم، لأن الناس عبيد الإحسان، والمعروف لا يضيع بل يظل محفوظًا في القلوب والذاكرة، ويتجدَّد على الألسنة بالذكر الحسن، وكم كانت تلك الأفعال الطيِّبة سببًا في نجاة من يفعلها من مشكلات كثيرة ومصائب عظيمة! وهذا ما قاله بعضهم: «أيقنت في أكثر من موقف أن الله نجَّاني بسبب وقفتي مع فلان، وموقفي من فلان، وصَدَقَ رسولنا الكريم -صلَّى الله عليه وسلَّم- حين قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».

وهذه بعض أقوال المغتربين عن الطيِّبين الذين تيسَّرت بهم الحياة في الغربة:

يقول عبدالله: "ذهبت إلى عملي غريبًا، ولم يكن موجودًا في هذا القسم أحد من أبناء جنسيَّتي، ولا أنسى أبدًا معروفًا أسداه إليَّ أحد الزملاء، وعلى الرغم من أنه ليس من أبناء وطني فإنَّه أجبرني أن أراه أخي الذي لن أنساه، جاءني من تلقاء نفسه، وجلس معي يوضِّح لي طبيعة العمل، ثم أعطاني أسطوانة فيها كل ما أحتاج إليه في العمل، وتمرُّ الأيَّام، وفي حديث بين زملاء العمل عن الأخوة والصداقة والمعروف، فذكرت موقف هذا الزميل معي –وكان حاضرًا– فابتسم وأقسم أنه لا يتذكر شيئًا مما أقول، ثم حدَّثني بعضهم أنه هكذا دائمًا يفعل الكثير من الخير ولا يتحدَّث به أبدًا".

يتَّصل أحدهم على زميل له: "أنت تحتاج إلى سيارة ستساعدك كثيرًا في عملك، أمامي سيارة زميل انتقل إلى عمل آخر، فرصة وسعرها مناسب".

فيرد عليه: "أنت تعلم أني لا أملك ما أشتري به سيارة".

"لا تشغل بالك، أنا سأدفع ثمنها، ثمَّ سدِّده على أقساط متى يتاح لك ذلك".

ولا يزال هو وأسرته يدعون له في كل موقف وفي الصلاة، يدعون له كلما أنجزوا بها عملًا أو كانت سببًا في التيسير عليهم.

يحكي صالح، أحد المغتربين في المملكة العربية السعودية: "صار الحج صعبًا لمن هم داخل المملكة، فمن يرغب في الحج إمَّا أن يحج مخالفًا بدون تصريح، وهذا فيه مجازفة كبيرة، قد تكون نهايتها إنهاء عقده وخروجه مع قرار بعدم العودة قبل عدة سنوات، وإمَّا أن يأتي بتصريح ليشارك في إحدى حملات حجَّاج الداخل، وكان راتب عبد الله يكفي متطلَّباته بالكاد، ولم يردْ الحج مخالفًا، فقد تنتهي بالترحيل.

يأتيه اتِّصال من أخ له: «ستصلك رسالة فيها رقم، أرسله بسرعة». ثم يسأل عبد الله بعدها: ما الأمر؟ فيخبره بأنه قد حجز له في إحدى حملات الحجِّ، وأن عليه متابعة الموضوع مع مسؤولي الحملة، وأن هذا هديَّة منه ومن زميلٍ آخر".

العمدة

في كل مكان يوجد من يطلق عليه أبناء الجالية (العمدة)، هو مغترب قديم، يسعى لكسب لقمة عيشه مثل كل مغترب، هو شخص اجتماعي بطبعه، يحب الناس ويعمل على تقديم النصح لهم وخدمتهم، من طول فترة غربته صارت له معارف داخل المكان الذي يقيم فيه، يستطيع من خلالهم الحصول على خدمة لأحد المغتربين، أو حل مشكلة، أو إنقاذ أحدهم من ورطة وضع نفسه فيها، أو توفير فرصة عمل لمن ضاقت به الحال وترك عمله.

العمدة لا يكتسب مكانته بسهولة، بل لا بد أن يقدِّم ويبادر للخدمة، وللأمانة فأغلبهم لا يسعى للحصول على هذا اللقب، بل كثيرًا ما يطلقه عليه أبناء وطنه لما يرون فيه من قلب كبير وعقل واعٍ ونفس

نقيَّة، ومبادرة وذاتية لنجدة الناس وفعل الخير، فطبعه حب الخير للجميع، ومنهجه المبادرة لتقديم العون لمن يحتاج.

وجود مثل هؤلاء يسهِّل كثيرًا على حديث العهد بالغربة، فالنصيحة منهم توفِّر الكثير، ومعارفهم يختصرون الوقت ويوفرون المال، والعمدة هو كبير العائلة الذي يجمع في الأفراح، ويواسي في الأحزان، وحيثما مكانه فهو دار المناسبات المفتوحة للجميع.

غربة فوق الغربة

وممَّا يذكِّر الغريب بغربته، وينغِّص عليه أيامه مهما كانت أحواله جيدة، ما يلقاه من نماذج بشرية قد تفقد الإنسان ثقته في كل البشر، حين يتعامل مع من يرتدون جلود البشر ويستعيرون وجوههم، بل ويتزين بعضهم بـ (اكسسوارات) الفضيلة والرقيِّ، وعند التعامل تظهر أظفارهم وتبدو أنيابهم، ويتعاملون بطبيعتهم وخسيس أخلاقهم، فتكون الصدمة للغريب الذي يرى أمورًا تخالف ما يعدُّ من أبجديَّات الإنسانية وبَدَهِيَّات العلاقات فيها (فضلًا عن تعاليم الإسلام وقيمه).

أولئك البشر الذين لا يعلمون لغة غير المصلحة الخاصَّة والمنفعة المادِّيَّة، والاستغلال المقيت، منهم من يرى وجودك في نفس البلد تضييقًا عليه، واقتطاعًا من رزقه، لذلك لا يرحب بوجود غيره من أبناء وطنه وجنسيته، ومنهم من يظنُّ نجاحك حربًا عليه، فيعلن الحرب عليك، والحطَّ من شأنك وغرس التشاؤم في نفسك، ومنهم من يجد فيك الصيد الساذج الذي يسهل عليه قنصه، فيبادر إليك ناصبًا شباكه حولك، بوجه ناعم وأخوَّة زائفة، وكلام معسول عن الصحبة ورفقة السفر وحب مساعدة الغير، حتى تشاركه المسكن أو تقع له بأموال تحت أي بند، ثم لا تراه كما كان حريصًا أن يظهر أمامك، بل ترى كائنًا آخر يحارب ويكذب ويقاطع ويخاصم من أجل القليل من الكسب المادِّي.

وفي هذا الكثير والكثير من القصص والحكايات، يحكي صديق مهندس: "جاءني معلِّمان من المدرسة التي فيها أولادي، جاءا يطلبان مني توفير مسكن لهما، وضح أمامي ما بينهما من المحبة والأخوة والصداقة، وفَّرت لهما المسكن بأغراضه على ضمانتي الشخصيَّة، بعد شهرين اتصل عليَّ صاحب البيت يطلب حضوري، وإذا به يشكو من سوء الجيرة معهما، والألفاظ السيئة، وصوت التلفاز المرتفع، وأخيرًا المشاجرة التي حدثت بينهما لسبب تافه، أبلغهم بترك المسكن آخر الشهر، وبالفعل فوجئ بتركهم المسكن دون سداد إيجار الشهر الثاني، والأسوأ من ذلك هو وجود تلفيَّات في المسكن لسوء استخدامهم وعليهم إصلاحها، تحدَّث إليهم فرفضوا، ولم يرد اتِّخاذ أي إجراء ضدَّهم لأنَّني الضامن.

نهاية الأمر... ترك صاحب المسكن لهما إيجار الشهر، ورفضا دفع تكاليف إصلاح التلفيَّات، فغرم المهندس ثمنها، وأقسم ألَّا يخدم بعدهم أحدًا".

ولعل من أمرِّ ما يواجه بعض المغتربين من أقرانهم ما يسمى (مقابلات العمل)، ففي بعضها يقدِّم من يريد العمل سيرته الذاتية للجهة التي يريد، ثمَّ يحدَّد له موعد للمقابلة، وهذا شيء طبيعي ومعمول به

عند الجميع، لكنَّ ما سمعناه وعايشناه من ظروف هذه المقابلات يبعث الغيظ، فعلى سبيل المثال: من أجل وظيفة معلِّم عُقِدَت لجنة من عدَّة أشخاص ليقوموا باستعراض عضلاتهم على المسكين، فيسأله أحدهم عن البلاغة وعلومها، وآخر يختبره في قدرته على إعراب القرآن، وثالث يطلب منه تسميع المعلَّقات، والرابع يسأله عن إستراتيجيات التعليم الحديثة، والخامس يختبره في حفظه للقرآن وتجويده، كل ذلك في جوٍّ مفعم بالمنظرة والاستعراض، ومع ذلك ليست هنا المشكلة، المشكلة أن الوظيفة هي معلم للصفوف الأوَّليَّة، التي كل مهاراتها تعليم الحروف وقراءة الكلمات.

الفصل الثالث

خواطر من وحي الغربة

للغُربة مرآة

هل تذكر يا ولدي ما كنت أقوله لك؟ قلت لك إن كثيرًا منَّا قد لا يرون الأشخاص حولهم على حقيقتهم، بل يرونهم في صورة مغايرة، وفيها بعض المبالغة وأحيانًا الكثير منها، ذلك لأنهم لا يرونهم بأعينهم مجرَّدين كما هم، إنما يرون صورًا معكوسة لهم من مرايا تمَّت صناعتها في خيال من يرى، وتمَّ تثبيتها في عقله وقلبه، صُنعت المرآة من خلال انطباعات أو مواقف سابقة، تركت في العاطفة أثرًا واضحًا، والكثيرون لا يرغبون -بعد صنع تلك المرايا- في الرؤية إلَّا من خلالها.

ولأنَّ المرايا أنواع كما نعلم، منها المقعرة التي تظهِر الشخص أكبر من حقيقته وأقرب من موضعه، تشبه تمامًا مرآة السيارة غير أنه لا يوجد عليها التنبيه المكتوب: «احذر فالأشياء تظهر في المرآة أقرب من الحقيقة».

ويتمُّ التعامل مع الأشخاص بناءً على صورتهم المنعكسة في تلك المرآة؛ فكل شيء منهم رائع، وكل موقف لهم محمود، وكل نية لهم حسنة، إن أساؤوا التُمِست لهم الأعذار، هم فوق مستوى الشك وأعلى من سوء الظن الذي يبدو نتيجة أفعالهم، ومن هنا خرجت الأمثال الشعبية بتلك المعاني: «مرآة الحب عمياء»، «حبيبك يبلع لك الزلط (الحجر)»،...

وقد يُرَى بعض الأشخاص منعكسين من مرآة محدَّبة، يظهرون فيها أبعد من أماكنهم، وأصغر من أقدارهم، يحسنون و(يقيدوا صوابعهم العشرة شمع) فيكون الرد الصامت: عادي، هذا هو واجبهم، وهم لم يفعلوا فوق المطلوب، مهما كانت قلوبهم عامرة بالحب والمودة، وألسنتهم بالسؤال والتواصل، ومواقفهم التي يجب ألَّا تُنْسى...... كل هذا لا شيء لأن المرآة محدَّبة.

وذكرت لك يا ولدي أن الغربة -وقد سبقتك إليها- قد أبدلت المغتربين بهاتين المرآتين مرآة خاصة، تلك المرآة مستوية لامعة واضحة، يظهر فيها كل شخص على حقيقته، ويأخذ من الصورة الحيِّز الذي يناسب حجمه، يتضاءل بعضهم، ويختفي البعض الآخر، ويظهر في الصورة أناس رائعون ما كانت العين تراهم، فهنا قد انقطعت أسباب الوصال المصنوعة، ومظاهر الحب الزائفة، وانعدمت المصلحة والعلاقات النفعيَّة، وتبقى تلك المرآة بواقعيَّتها وصدقها حيث المحبَّة والمودَّةَ والأخوة الصادقة، والتعارف والتآلف المبنيان على: «ولا تنسوا الفضل بينكم».

واعلم -ابني الحبيب- أن التحوُّل إلى الرؤية بمرآة الواقع قد يأخذ بعض الوقت، ويخلِّف كثيرًا من الألم في حينه، ويترك أسئلة تعلم إجابتها بمرور الوقت، فمن الصعب على النفس أن تكتشف أنها كانت

مخدوعة أو مغفَّلة، كما أنه من المؤلم أن يعلم الإنسان كم كان ظالمًا أو مهمِلًا أو مقصِّرًا تجاه من يستحقون كل تكريم وقرب وتقدير، كيف خدعه نظره القاصر؟ وكيف استدرجت تلك المرآة عقله ليسجل للأشخاص سيرًا ذاتية زائفة؟

الرجوع للمرآة المستوية يا ولدي يستلزم تكسير الأُخرَيين، ثم التدريب المستمر على الرؤية الصافية، ثم علاج ما أحدثته الرؤية السابقة تجاه كل شخص، والعلاج لن يكون وقتيًّا سريعًا، لكنه يحتاج إلى وقت طويل حتى يدرك كلٌّ حجمه الجديد، الذي هو في الواقع حجمه الأصلي بلا زيادة ولا نقصان.

وسوف يلاحظ البعض هذا التغيير، فبينما يفرح البعض لعودته لمكانته اللائقة منك، سيتعجب غيرهم، وكأنهم يقولون: حينما كنت مغفلًا كنت أفضل، وبالطبع سيخرج الاتهام الجاهز: غيَّرته الغربة، أو غيَّرته الأموال.

الحكمة والغربة

شكلت الغربة مصدر إلهام للأدباء والشعراء، بل وصنعت من عموم الناس حكماء، تجري الحكمة على ألسنتهم تلخِّص تجاربهم، وتختصر أعوامهم، وتسجل كل شيء وبخاصة الأحداث، ففي الغربة يتحوَّل الكثيرون إلى حكماء، لعل لذلك أسبابًا كثيرة، منها كثرة حالات الصمت التي يضطر إليها الغريب، فكما قالوا: الصمت نصف الحكمة.

وتعدُّد المواقف التي يجب فيها إعمال العقل والابتعاد عن ردة الفعل السريعة، هذه أيضًا تصنع الحكماء، فالغريب محاسَب على كل شيء، فقد يترجم ردّ فعله تجاه موقف ما إلى كلمات وعبارات تشفي صدره قليلًا، لكنَّها قد تؤدي به للوقوع في حوار ونقاش يخسر فيهما كثيرًا، وفي بعض الأحيان تصل النتيجة لأبعد من ذلك، والحقيقة أن أغلب ما يقاسيه المغترب من شوق وحنين لوطنه، وتعب من الغربة وأحوالها، والمقارنة بين معيشته في وطنه واغترابه، كل ما سبق يدعو للحكمة.

وحين نمعن النظر نجد أنَّه من النادر أن يتهوَّر الغريب، أو أن يكون مخالفًا لقواعد وقوانين البلد التي صار يقيم فيها، مثلما اعتاد الكثيرون أن يفعلوا في بلادهم، فالذي كان يفقد أعصابه في بعض المواقف يتحول إلى الشخص الحكيم العاقل الذي يمرِّر القول والفعل على عقله أولًا، فما كان فيه خير وظاهر عاقبته الخير مرَّره، وما كان غير ذلك تراجع عنه وبحث عن إجراء بديل، والذي لم يكن يتحمَّل أن يدوس أحدٌ له على طرف صار ملتمسًا للأعذار ناظرًا لما وراء الحدث، وما خلف اللحظة من أسباب.

ونحن هنا لا نتَّهم المغتربين -ونحن منهم- بالجبن والرضا بالذلَّة والدونيَّة، إنما نحمد للعاقل عقله، ونمدح فيه عدم انسياقه وراء غضبه، فقد كانت وصية الرسول -صلى الله عليه وسلَّم-: "لا تغضب"، ولأن عاقبة الغضب لمن ينساق وراءه وخيمة، لذلك فقد ترك لنا علاجات للغضب تجدي في مختلف الأحوال، مثل الاستعاذة بالله من الشيطان، والوضوء، وتغيير حالة الغاضب من القيام إلى الجلوس إلى

الاضطجاع، وليس ضعفًا أن يترك الإنسان الفرصة لنفسه لتهدأ، ولعقله أن يستوعب، ولقلبه أن يسامح، أليست تلك من ضمن مقاصد وصايا رسولنا الكريم ﷺ؟!

فالعاقل من قدَّر المواقف وأحسن اختيار رد الفعل المناسب لكل موقف، ولعلَّ ذلك من فقه الموازنات في الشريعة، فإن كانوا قد قالوا في الأمثال: «يا غريب كن أديب»، وهي دعوة للغريب أن يحسن التعامل في غربته، فينال حب الناس واحترامهم، فلنا أن نقول أيضًا: "يا غريب.. كن حسيب"، و(حسيب) صفة مشبَّهة تدلُّ على الثبوت من حسُب، ومعناها كريم الأصل شريف، ومن طبع هذا الحسيب أن يعلم أين تقع كلمته وإلى أين تصل نتيجة فعله، ولعلَّ من الأشياء الطيِّبة التي تغرسها الغربة في الكثيرين هذه الجزئية الرائعة من التمهُّل والتماس الأعذار، وتعامل العقلاء، لذلك فبعد العودة من الغربة يتعجب البعض من هذا التغيير، ولسان الحال يقول: «حقًّا الغربة تستدعي العقل وتصنع الحكماء».

وحين نبحث في الأقوال والحكم التي تلخِّص تجارب الغربة، نجدها تدور بين تعريفات الغربة ومرارتها، والشوق للأوطان والأحباب والحنين للأرض والديار، وكيف أن الغربة خير معلِّم، وأبلغ كتاب يتيح للناس آفاقًا للمعرفة والتجارب، والملاحظ في حكمة الغربة هو رقة الأسلوب وجزالة الكلمات وحسن التصوير في عبارات مختصرة تعبِّر عن اختبار الغربة، سواء كان من قالها هو من اغترب بنفسه، أو أحد الذين تأثروا بغربة غيرهم.

فهناك جانب كبير من الأقوال تعرِّف الغربة وتشرح معناها في إطار الحديث عن الوطن، فأجمل وأصدق ما يقال عن الوطن هو ما يأتي بعد تجربة الحرمان منه والابتعاد عن أرضه، فمن خلال التجربة، ومن خلال المعاناة التي يقاسيها القائل، والمرارة التي يتذوَّقها، يخرج أفضل ما قيل في الأوطان ووصفها وحبِّها والانتماء إليها، ومثل هذه المعاني وردت في الحِكم المنثورة عن الغربة والأوطان، فالمغترب حين يترك وطنه يفعل واحدة من اثنتين: يترك جزءًا منه في وطنه، يترك قلبه وعاطفته ومشاعره، ويختلف العقل بين غربته ووطنه، ولا يستطيع الابتعاد كليًّا عن الوطن.

أو يأخذ معه الوطن حيث يسافر، فلا يفارقه ولا يبتعد عنه، يظهر أمامه في كل مكان، ويبدو في كل موقف، فيعيش منطلقًا في غربته، باحثًا عن أحلامه، ويعود كلَّ ليلة إلى وطنه الذي جلبه معه حين قرَّر السفر، يتحدَّث معه ويعرض عليه ما يلاقي، ويقترح عليه ما ينهض بشأنه مما يرى في غربته.

> **جسمي معي غير أن الروح عندكم**
>
> **فالروح في غربة والجسم في الوطن**

سمع صديقًا له يتأفَّف في مكالمة مع أمِّه، يخبرهم بأنهم لا يدرون شيئًا، ولا يعلمون كم يعاني من أجلهم، حينها تجدَّد فيه الشوق لأبيه وأمِّه وأهله، أبوه الحنون على الرغم من صوته المرتفع وكلماته

القاسية أحيانًا، ونصائحه المتوالية في كل موقف، وغضبه عند الخطأ كأن ابنه يجب أن يكون ملكًا لا يخطئ، اشتاق لأمِّه وشدَّتها عليه حتى يصير رجلًا بين الناس، على الرغم من أن ذلك منعه النوم والراحة -أحيانًا- في أحلى أوقاته، ليقوم لجارهم المريض، أو ليحضر جنازة فلان ويعزِّي أولاده وأهله، ويترك متابعة فريقه من أجل صلة رحمه وعمل الواجب مع أخواته، فالمباراة لن تطير.

يشتاق لصحبته بكلِّ ما فيها، لقائهم وعنادهم و(رخامتهم)، مباريات الكرة وما فيها من استفزاز ومكايدة، مواقفهم التي لا تنتهي حكاياتها، العمل معًا وزراعة الأرض وتعب المشاوير من أجل توفير عمل لأحدهم أو سعيًا في مصلحة لآخر.

يقول لصديقه: آهٍ لو تعلم قيمتهم! هم الوطن فأحسِن وصالهم.

هذ الغريب لم يعد مبهورًا بشيء مما يرى مثلما كان في أوَّل غربته، فقد صار يرى كل شيء في الغربة دونه في وطنه، حتى العمل الذي جاء من أجله، لولا معركة الخبز التي يخوض غمارها لعاد للعمل في وطنه، فأكل العيش في الوطن أفضل، الخبز أفضل، والطعام أفضل، والهواء أفضل، باختصار كل شيء في الغربة ليس أفضل من الوطن.

وممَّا تغرسه الغربة من الحكمة في نفوس وقلوب المغتربين أن الغربة تشبه المرض، منه ما يكون بسبب العدوى مثل (الحصبة)؛ يبرأ منه بعد أن يذوق ألمه لكنه يكون قد نقله لغيره، ومنه ما يكون مثل السكَّري؛ يؤمن المصاب به بعدم وجود العلاج الذي ينهيه، لكنها الأدوية التي تجنبه مخاطر المرض، فلا يقاومه جسمه ولا ترفضه نفسه، فيظل مصابًا راضيًا به حتى نهاية عمره، ومنه المرض الموسمي الذي يأتي ويذهب ويصاب به الكثيرون ويبرؤون، تتعدَّد الأعراض لكنها في النهاية تشبه المرض.

وممَّا يجعل الغربة داعية للحكمة أنها تربِّي النفوس وتهذبها، وأقصد هنا النفوس السويَّة القابلة للتعديل في الاتجاه الصحيح، فهناك بعض الأخلاق لا تُضبط بالوعظ، بل تحتاج من الواقع ما يفرضها، وهناك من السلوكيات ما يتم تعديلها بالتوجيه، لكنها تتعدَّل بالأحداث.

فمثلًا نحن نعتقد أن الرجل يظل تنقصه أجزاء من التربية، لا تكتمل إلا بقدوم أولاده، فهذا الرجل المعروف بقسوة قلبه تنضبط الرحمة في قلبه بسبب أولاده، وهذه التي تتأفَّف من الأولاد وتصاب بالقرف من رؤية بعض أحوالهم هي نفسها التي تتعامل بعد ذلك بمنتهى التواضع والحنو، لأنَّ أبناءها علموها الواقعية.

كذلك الغربة؛ يصاب بها أحدهم فتكون له الدروس العملية في حسن تقدير الناس وإنزالهم منازلهم، والاعتراف بما كان ينكر من نعم الله عليه، وأوَّلها نعمة الوطن كما ورد من حكم الغربة:

حراثة الأرض في الوطن خير من عد النقود في الخارج، ونعمة الأهل والسكن، كما قال أحدهم:

غضب أبيك، تأنيب أمك، عتاب صديقك، عبث أخيك بِأشيائك، كلها كالوطن؛ لا تعرف أنه جميل إلا إذا غادرته.

تعطيه الغربة مجموعة من الدروس التي لن ينساها طوال حياته، وتلقنه كلمات سيظل يردِّدها بلا ملل.

الغربة تشبه الموت في بعض نتائجه، ترقِّق القلوب تجاه الناس، تجعلك تقول: لا شيء يستحق الفراق والخصام والبعد، تجعل نفسك صافية مع الجميع، تدعو لهم كثيرًا وتتمنَّى عودتك أو عودتهم لتصل حبال الودِّ المقطوعة، وإن كان هناك من يقول: ربِّ ارجعون، فإن كثيرًا من المغتربين يقولونها ونياتهم أن يعملوا صالحًا في ديارهم التي فارقوها.

وماذا عن الأدباء؟ هل يتأثَّرون بالغربة كغيرهم؟ أم أنهم يرونها من منظور خاصٍّ بهم؟ من البَدَهِيِّ أنه لو لم تؤثر الغربة في أحد من الناس، لأثَّرت في الأدباء أشد التأثير، ولو استطاع كل الناس تجاهل الحديث عن الغربة وآثارها، فلن يستطيع الأدباء ذلك، فهم الأشد تأثُّرًا والأسرع تعبيرًا، وإن كانت الغربة قد صنعت من البسطاء حكماء، فمن باب أولى أن ينسج الأدباء من الغربة حكمًا وأقوالًا تزيد قيمتها مع مرور الأيام، كما قال أحدهم عنها:

«يصاب المرء بالغربة كما يصاب بالربو، ولا علاج للاثنين، والشاعر أسوأ حالًا، لأن الشِّعر بحد ذاته غربة».

فمن يستطيع أن يلخص النصيحة في معاملة الغريب لمن يكره في غربته، ويغلِّفها بأجمل غلاف من البلاغة وأنواع البيان، مثلما قال ابن شرف القيرواني:

إن ترمِكَ الغربة في معشرٍ	**قد جُبِل الطبع على بغضهم**
فدارِهمْ ما دمت في دارِهمْ	**وأرضِهمْ ما دمت في أرضِهمْ**

ومن أهم ما يتناقله الناس عن دواعي السفر والغربة قول الإمام الشافعيِّ:

تَغَرَّبْ عَن الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلا	**وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ**
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَةٍ	**وَعِـلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَـةُ مَـاجِـدِ**

ويعرِّف غسان كنفاني الغربة تعريفا خاصًّا به فيقول: "الغربة أن تفقد حديث من تحب".

أمَّا جلال عامر فيقول: "يتراجع دور الوطن في الخارج عندما يتراجع دور المواطن في الداخل".

وتقول غادة السمان:

“لست جناحًا، أنا التحليق.
لست غريبة، بل أنا الغربة.
لست حرة، أنا الحرية.
أنا ملَّاح يكاد ملح الغربة يحرقه”.
كما قالت أيضًا:
“السعادة تصيبني بالارتباك، وحدها تخيفني، فأنا امرأة أَلِفت الغربة”.
وأضافت:
“الصداقة تعني لي الكثير، إنها تأتي بمرحلة الحب، لأنها كسر لعزلة القلب، وتدمير لصقيع الغربة”.
ويختصر الأديب نجيب محفوظ مفهوم الغربة في غربة الوطن:
“إن أشدَّ أنواع الغربة تلك الغربة التي تشعر بها في وطنك”.
وعلى نفس المنوال نسج الكثيرون وتناثرت أقوالهم، ومنها هذه الأقوال:
“تترك وطنك فقط حين لا يترك لك الوطن مجالًا للبقاء”.
وهذا ابن رشد يجعل العلم والجهل هما معيار الغربة، يقول في الغربة: “إن العلم في الغربة وطن والجهل في الوطن غربة”.
ومن أروع حكم الغربة قول ذلك الشاعر:

فإن قيل في الأسفار ذلٌّ ومحنة	وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من قيامه	بـدار هوان بين واشٍ وحاسد

الفصل الرَّابع

بين الغربة والذكريات

«رمضان» غريب

للمرَّة الثانية في حياته يأتي عليه شهر رمضان وهو بعيد عن بيته وأسرته، في المرَّتين كان غريبًا، المرة الأولى كانت غربة قصيرة عابرة في أثناء تأدية الخدمة العسكرية، حيث مرَّ عليه رمضان ذلك العام شاقًّا حزينًا، كان في مركز التدريب، في أشدِّ أيام العام حرارة، في تدريب من الصباح حتى العصر، مع خليط من القسوة والإهانة والتضييق في الطعام، ولكن كل ذلك انتهى أثره مع إجازة العيد التي أدرك فيها بعضًا من أيام رمضان ويوم العيد بين أحبابه.

أمَّا رمضان هذا العام فيأتي في وضع مختلف، في الغربة كل شيء مختلف، وكعادة عقله منذ جاء إلى الغربة؛ لا يتركه يعيش واقعه إلا بالمقارنة مع أيام الوطن والأهل والأحباب، يتذكَّر رمضان الوطن، ويتنهَّد تنهيدة طويلة محدِّثًا نفسه بعدها: "نعم، لقد جاء الشهر الحبيب ولن أدرك منه ساعة بين أحبابي ولن أفطر من يد أمِّي»، شغَّل التلفاز فسمع تلاوة قرآنية يردِّد فيها القارئ تلك الآية أكثر من مرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ...﴾ (سورة البقرة: الآية 85).

تسبقه الدموع بمجرد سماعه الآية الكريمة في أثناء متابعته بيان وزارة الأوقاف في رؤية هلال رمضان، قد يُظَنُّ أنَّها دموع الفرحة بقدوم شهر العبادة والقرآن والمغفرة –وإن كان هذا حاضرًا في قلوب وعقول الكثيرين– لكنَّها الغربة في تعاطيها مع كل مناسبة قادمة، فتأخذ عند الناس مكانتها، وتأخذ من الغريب قلبه وعقله، وتأخذ من مآقيه الدموع، ثمَّ تأخذه هو نفسه بعيدًا حيث الوطن والأهل والأحباب وتلك المناسبة، فيعيشها مرتين؛ مرة في حينها حيث الغربة والوحدة والجفاف، ومرة في خياله حيث الأهل والصحبة ونضارة الوطن.

هو الآن يتابع الاحتفال، أمَّا خياله فقد رجع إلى الوطن، قبل رمضان بأيَّام حينما يشاهد خلال سيره بالشارع مواكب المواسم التي تذهب للأقارب، وهي عادة رائعة –إن تخلَّصت من التكلُّف والرياء– وذلك حيث تقوم كل أسرة –في المناسبات الإسلامية– بإرسال (الموسم أو العشاء) إلى بناتهم أو أخواتهم أو عماتهم المتزوِّجات، وأحيانًا إلى آخرين ذوي قرابة أو من غير ذوي القرابة، ويتكوَّن (الموسم أو العشاء) من المواد الغذائية الأساسيَّة من لحم أو دجاج مع الأرز والمكرونة والسكر والشاي والفول وأشياء أخرى –حسب مقدرة مَن يرسِل–.

يبتسم حين يتذكَّر أفواجًا من البنات والفتيات الصغيرات يحملن الأسبتة أو السَّبَتَات (جمع سَبَت وهو السلَّة الكبيرة) تغطي كلًّا منها فوطة جديدة ذات ألوان زاهية، وكان هذا المنظر كفيلًا ببث السعادة في قلبه، لما فيه من رمزية كبيرة في صلة الأرحام والتعاضد مع دخول الشهر الكريم، ولما فيه من البهجة التي تسير في تلك المواكب والسعادة التي تدخل بها على البيوت، وشعار هذه الأيام بمواسمها: جبر الخواطر.

وثمَّ يتذكَّر ليلة الرؤيا، حيث يتجمَّع الناس حول (الراديو والتلفاز) ليتأكد كل منهم بنفسه من قدوم الشهر الفضيل، ويكون له السبق في إخبار الباقين بنتيجة الرؤيا، وكأنه أحد أعضاء لجنتها، فيقول الخبر لمن يريد ومن لا يريد، ويؤكِّد بكل الفخر والثقة: سمعتها الآن بأذني من وزير الأوقاف.

ثم يستشهد بما تبثه الإذاعة ويقول لهم: حتى تصدقوني استمعوا...

أهوه جه يا ولاد		هيصـــوا يـــــا ولاد
أهوه جه يا ولاد		زقططوا يـــــا ولاد
في كل عام ويَّانا معاد		وعمره ما بيخلفش معاد
أهو جه يا ولاد	أهوه جه يا ولاد	أهوه جه يا ولاد
جبت لنا معاك الخير كله		من الصبح نقوم ونحضرله
من قمر الدين	وبلح على تين	والمغرب للمدفع واقفين

تلك الكلمات التي تبشر بدخول الشهر، وتفاصيل فرحة رمضان، حتى إنها لا تنسى تباشير فرحة العيد وملابسه وكعكه.

وعلى الرغم من أن الفارق يوم واحد في رؤية الهلال، لكنَّ الناس ينقسمون إلى فريقين: منهم من يتمنى سماعها هكذا: «غدًا هو المتمِّم لشهر شعبان، وبذلك يكون بعد غد هو أول أيام شهر رمضان المبارك»، وهذا بالطبع مرتبط بظروف كل شخص هنا، فما يزال هناك عند البعض عمل شاق يجب أن يتمَّ قبل الصيام، أو لأن بعضهم لم يستطع توفير احتياجات المنزل لشهر رمضان، أو في انتظار بعيد يتمنون أن يأتي ليفطر معهم أول يوم في رمضان، أو لحاجة في نفس صاحبها لم يبدِها لهم، ومنهم من يتمناها غدًا، فقد اشتقنا للشهر الكريم وأعددنا العدة لاستقباله.

وهنا منطقة كبيرة لأصحاب الخيال وخفة الظل، ليمارسوا التحليل الفنِّي والسياسي لرؤية الهلال، وهو ما يطلق عليه الشباب في أيامنا هذه: (الهَبْد)، فأحدهم يدلي برأيه وما يملكه من معلومات موثوقة أنّنا لن نصوم مع ليبيا لأن الريس زعلان مع القذافي، وقال للمفتي يعلن أنَّ بداية صيامنا سيكون في يوم مختلف عنهم، والآخر يؤكِّد الصيام غدًا، لذلك فقد جعلوا مباراة المنتخب ليلًا، والثالث بخفة ظله يبلغهم بأن العمدة (مزنوق في قرشين) يشتري بهم طلبات رمضان، لذلك سيأخرونه يومًا أو يومين.

تدور في ذهنه كل المناقشات الدائرة حول هذا الأمر ويبتسم، ويسمع صافرة إنذار وتحذير: «احترس... فالعقل يرجع بالذكريات إلى الخلف، وهذا قد ينذر بهطول أمطار دافئة»، لكنه لا يعبأ بالتحذير، وتتوالى الذكريات.

وكعادة الأوقاف في بيانها فإن المتحدِّث يغرِقهم بعلمه قبل أن يقول الخبر المنتظر، والناس يريدون الخبر، وينادي بعضهم: "يا عم خلَّص..هات من الآخر.. ريقنا جف قبل الصيام"، يردِّد المسكين تلك الكلمات بأصوات أصحابها في البلد، ويضحك مثلما كان يضحك الحضور، ويفيق على انتهاء بيان الوزارة: غدًا رمضان، يكتم صوت التلفاز.

تنشط الذاكرة لما قبل رمضان بأيَّام كثيرة، حيث يبدأ العد التنازلي، وتبدأ معه الاستعدادات، وتبدو مظاهر رمضان في الشوارع وعلى وجوه الناس، أفران الكنافة التي يتمُّ بناؤها في كلِّ شارع وحارة، مع الكلمات الدافئة والدعوات بسعة الرزق وأن يكون شهر خير للجميع، "كل عام وأنتم بخير، والله بعودة يا رمضان، الأيام بتجري...ربنا يوسَّع عليكم"، يعود إلى مكانه على وقع رسالة في مجموعة العمل تهنئ برمضان وتنبِّه على المواعيد الجديدة وتحذِّر من التقصير في العمل.

يعود لوطنه، وفي الخلفية صوت يغني:

مرحب شهر الصوم مرحب	لياليك عادت بأمان
بعد انتظارنا وشوقنا إليك	جيت يا رمضان
مـــرحب بقـــدومك	يـــا رمـضـــــــان
ونعيش ونـــصـــومك	يـــا رمـضـــــــان
بعد انتظارنا وشوقنا إليك	جيت يا رمضان

عدد كبير من الطاولات تنتشر في زيٍّ من قطع القماش المزركشة (الصوان)، ليتم وضع العصائر بأنواعها على جزء منها، ويستخدم جزء آخر لعرض المخلَّل (الطرشي)، بأنواعه وأشكاله، والجميل في هذه الطاولات هو ذلك التناسق الواضح بين قطع الصوان والمعروضات في الألوان والأشكال، واتِّفاقها في رمزيَّتها عند العامَّة لقدوم الشهر الكريم، وتُستخدَم بعض هذه الطاولات وألواح العجين أيضًا لعرض ألعاب الأطفال و(البُمْب) والصواريخ، لزوم المقالب وإبداع الأطفال في صنع الإزعاج المخلوط بالدعابة.

يستوقفه المشهد الأخير.. الإزعاج والمقالب.. مقالب العيال.. "يا أولاد الذين....." وتعلو وجهه ابتسامة تتحول لضحك وقهقهة، فقد تذكر الأطفال ومقالبهم وألعابهم ومنافساتهم، فليل رمضان كان معرضًا للمواهب والمقالب، تذكَّر (سلك المواعين) الذي كانوا يشعلونه ويلعبون به بفرح وانطلاق وسط خوف المارَّة، وكيف كان يمر من بينهم بوساطة من أخيه الصغير، الذي كان يطلب من أقرانه الانتظار حتى يمرَّ أخوه الكبير، قائلًا له بكل ثقة: «عدّي ما تخافش»، وتذكَّر تأثير الصواريخ التي كانوا يلقونها بين أقدام الناس ليضحكوا على ردِّ أفعالهم، ومباريات الكرة وتكسير المصابيح أمام البيوت والدكاكين.

ويضحك حتى يكاد أن يقع، حين تذكَّر أحد زعماء الأطفال في المنطقة، الذي لم يجد أحدًا يكمل معه اللعب، لأنَّ كل الأولاد دخلوا المسجد لصلاة الظهر في أوَّل أيَّام رمضان، والمسجد يمتلئ بالمصلين عادة في الأيام الأولى، وقرَّر الزعيم معاقبتهم على تركه وعدم إكمال اللعب، فمرَّ على الأطفال المصلِّين ضاربًا كل واحد منهم قلمًا على قفاه، فتنبَّه خادم المسجد وخشي على نفسه الضرب وضياع الهيبة –وبخاصة أنه كان عدوًّا للأطفال في المسجد–، فقام بتثبيت الشال على رأسه وأعلى ظهره، فاستفزَّ الطفلَ المشاغب بفعلته، وما كان منه إلا أن جذب الشال وكشف قفا الرجل، وقال له: أنت بالذات قلمين، وسمع المسجد كله قول الطفل وطرقعة يده.

وما إن سلَّم الإمام حتى علت الأصوات مستنكرة بينما يكتم أصحابها ضحكاتهم مما حدث، ويتذكر مقولة عمه الحاج إبراهيم صاحب دكان البقالة بعدها وبعد كل مشكلة يتم حلُّها سريعًا: "ويقول لك العيال أحباب الله، ليسوا عيالًا بل شياطين، مع أن الشياطين تُسلسَل في رمضان"، ويضحك الجميع ويدعون: "ربنا يهديهم.. رمضان كريم".

رسائل كثيرة تأتيه على الجوَّال فتستحضره من وطنه لغربته، يفتحها فإذا هي رسائل من أصدقاء وأهل وأحباب، والغريب فيها أنها نفس الرسائل ونفس الصياغة، ونفس الاستفزاز أحيانًا بخفة دم معلَّبة لا تجلب ابتسامة ولا تشعر بوقار الشهر الكريم، فلم يكلف أحدهم نفسه عناء الاتصال أو كتابة رسالة خاصة، لكنها رسالة تدور، وتأتي أحدَهم وهو اللاعب الماهر، فيصنع منها ضربة خلفية مزدوجة (دبل كيك) ليسجل هدفًا في مرمى الغريب وقد سبقه بالتهنئة، نعم قد أحرز الهدف لكنه لم يصب المرمى.

تختفي الابتسامة وتتجهَّز في المآقي الدموع، حين يلتفت فلا يجد شيئًا مما كان يشاركه هؤلاء، ويسري في جسده شعور بالبرودة على الرغم من أن الجو ليس باردًا، لكنها برودة الوحدة، فعلى الرغم من وحدته الآن فإنه يعيش –بكل كيانه– زحام الماضي، الزحام على محلات البقالة والشوادر والدكاكين لشراء ما يلزم

من الأطعمة والمشروبات وقمر الدين والخشاف والمكسَّرات، وذلك استعدادًا لشهر الصوم الذي تقل فيه ساعات الأكل، ويكثر فيه التهامه، وهي الطرفة المؤلمة في التعاطي مع ذلك الشهر الكريم، ولعلَّه الفهم الخاطئ للمقولة المنتشرة عن شهر رمضان: رمضان كريم.

من وسط ذلك الزحام تنتشله رنَّات صادرة من الجوَّال، يحاول تجاهلها ولا يستطيع، يضبط صوته على (مقام) الفرحة، ويعطي وجهه مظهر الانبساط والسعادة -لاحتمالية أن تتحوَّل المكالمة الصوتية إلى مكالمة فيديو- «السلام عليكم...

الحمد لله.. وأنتم بخير..

رمضان كريم.. صايمين ولّا زي كل سنة؟ (يتظاهر بالضحك)

ما شاء الله هيصوم السنة دي؟ والله تمام..

الشباب هنا مظبطين الدنيا ومرتِّبين للإفطار والسحور يوميًّا..

لا طبعًا لن أفطر وحدي.. كل يوم معزوم عند واحد..

الخير كثير ما شاء الله..

طمنيني عليكم يا أمي، كله تمام؟ العام القادم بإذن الله تفطري عند الكعبة..

يا رب.. محمد رسول الله.. في أمان الله.. مع السلامة..

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

ينهي المكالمة ويبتسم، فقد كان بارعًا في تطمين والدته حتى كاد أن يصدِّق نفسه، وأوشك أن ينادي الصحبة التي ذكرها ليرتب معهم الإفطارات وأماكنها، حتى لا تحدث (لخبطة) وسط هذ الكم الهائل من العزومات، لكنه لا يجد إلا صدى صوته يصفعه: يا كذَّاب، فيرد: إنّه كذب أبيض، يشبه الكذب في بعض الحالات على الزوجة لإرضائها والمحافظة على البيت والأولاد، غير أنَّ الأم أولى وأجدر ألا تحزن في هذه الأيام المفترجة.

يريد أن يغير حالة الغرفة ويضفي عليها شيئًا من البهجة، يرفع صوت التلفاز، فيأتيه صوت عبد المطلب:

رمضان جانا	أهلًا رمضان
قولوا معانا	أهلًا رمضان

ولا أعلم حتى الآن ما العلاقة بين شهر رمضان وتلك المظاهر الدخيلة والمصطنعة مثل الغناء والفوازير وكثرة الطعام و.... يدندن مع الصوت وهو يهز رأسه متقمِّصا شخصية المطرب:

بتغيب علينا وتهجرنا	وقلـوبـنـــا مـعـــاك
وفي السنة مرة تزورنا	وبـنـســـــتـــــنَّـــاك

من إمتى واحنا بنحسب لك ونوضَّب لك ونرتب لك

أهـــــلًا رمـــضــــــان...

تنهيدة كبيرة تخرج وكأنها كانت جاثومًا كاد أن ينهي حياته، ويتسع المجال لمزيد من الذكريات، السهر حتى الصباح، لعب الكرة والتجمع بعدها في بيت العائلة، الجميع يبارك بقدوم الشهر والجميع يتلقَّى التهنئة، وتبدأ لجان الإحصاء والتسجيل في العائلة عملها: هذا أوَّل صيام للأولاد فلان وفلانة (البنات ما شاء الله أحرص من الصبيان وأكثر تحمُّلًا للجوع والعطش).

وهذا أول رمضان للعروسة الجديدة في عائلتنا (التي تكتسب طقوسًا جديدة لرمضان تختلف عن طقوس عائلتها القديمة).

وأول رمضان يشهده المولود الجديد، والقمر الذي أضاء سماء البيت هذا العام أيضًا.

ثمَّ تتغير نبرة الصوت مؤذنة باستدعاء الشجن:

وهذا أول رمضان لــ (محمد) في الجيش ربنا يكرمه وينزل إجازة ويفطر معنا، يا سلام لو يفاجئنا على الإفطار أول يوم!

ربنا يسعدك ويهدِّي سرِّك يا (منى)، يا سلام على النصيب، كانت معنا في رمضان الماضي، واليوم تفطر في بيت زوجها.

ويختلط الصوت بالدموع: الله يرحمك يا حاج، والله ما بتغيب عن بالي، سابع رمضان بعد وفاة الحاج -الله يرحمه- الفاتحة له.. وادعوا له عند الإفطار.

يقوم المسكين ليتأكد من وجود السحور قبل أن ينام، فيخرِج الخبز والجبن وعلبة الفول، نعم الفول.. ويسرح خياله مع عربة الفول والصوت المميَّز للبائع: الفووووول.. البليلة.. المدمِّس، مسمار المعدة يا فول، نعم إنَّه طعام الغلابة وإفطارهم طوال العام، وسحورهم الذي يقاوم الجوع في رمضان، كيس الفول منه كأنه الكهرمان، وتزداد حلاوة مذاقه باليد التي تفرغ الكيس وتجهزه، ويصير شهيًّا أكثر بوجود من يتشاركون أكله.

يتأكَّد من وجود الشاي والسخان، وتأتيه صورة العدَّة وأكواب الشاي الصغيرة والتجمع حول ست الحبايب للفوز بكوب شاي يضبط الدماغ ويهوِّن ساعات الصيام، فالشاي يمنع العطش كما تقول الحاجة بارك الله في عمرها.

وبعد أن تأكَّد من كل مستلزمات السحور وقبل أن يذهب للنوم يتَّجه لغلق التلفاز، لكنه ينتبه للصوت القادم منه:

وحوي يا وحوي إيَّاحة
روحت يا شعبان إيَّاحة
وحوينا الدار جيت يا رمضان
وحوي يا وحوي إيَّاحة
هل هلالك والبدر أهوه بان ... يا الله الغفار
شهر مبارك وبقاله زمان ... يا الله الغفار
ما أحلى نهارك بالخير مليان
وحـــــوي يـــــا وحـــــوي

ومن فضائل الغربة هنا، أو كما يقولون: الفَضَا (وقت الفراغ) أنه سأل نفسه عن معنى ما يردِّدون: وحوي يا وحوي إيَّاحة، أو إيّوحة، وقد سمعها قبل ذلك مئات المرات وردَّدها ولم يخطر بباله أن يسأل عن معناها، وبعد البحث علم أنهم اختلفوا في أصلها الفرعوني أو القبطي، وأنَّها كانت تقال عند استقبال هلال كل شهر، وأن إيِّوحة هي أم القائد الفرعوني "أحمس"، ولكنَّ الأهم أنه اقتنع بمجمل معناها: «اقتربوا لنرى الهلال».

جيت في جمالك سقفوا يا عيال ... يا الله الغفار
ما أحلى صيامك فيه صحة وعال... يا الله الغفار
نفدي وصالك بالروح والمال
وحـــــوي يـــــا وحـــــوي

طول ما نشوفك قلبنا فرحان ... يا الله الغفار

يكتر خيرك أشكال وألوان ... يا الله الغفار

بكره في عيدك نلبس فستان

وحـــــوي يـــــا وحـــــوي

تحرِّكه الكلمات فيضبط نغمة رنين جوَّاله عليها، وسرعان ما يأتيه اتصال فيتأخَّر في الردِّ ليسمعها مرة أخرى، اتصال من أصدقائه، من نفس المكان الذي اعتادوا أن يلتقوا فيه في أول ليلة من رمضان من حقل أحدهم، ليودِّعوا الإفطار ويستقبلوا رمضان بأكلة تسند الظهر وترم العظم لنهاية الشهر، وشاي الحطب الذي سيحرَمون منه طوال الشهر، بعد أن كانوا يتعاطونه خمس مرات يوميًّا في الحقل، فقد اعتادوا في الحقول أن يشربوا شاي الصبح والضحى والغداء والقيام من القيلولة، وأخيرًا شاي آخر النهار قبل العودة للمنزل.

المعهود في هذه الليلة أن يظلوا في الحقل حتى السحور، لكنَّ المكالمة تنتهي سريعًا، فليس لها أن تطول، فإنه قد ملَّ من الصوت والصورة عبر الجوَّال، ويريد الناس بشخوصهم وأنفاسهم وعلى نفس الأرض، وفي نفس المكان، وهذه المكالمات مثل أجهزة التنفس للمريض في غرفة الإنعاش، قيمتها الكبيرة في إبقائه حيًّا، لكنها لا تبعث فيه الحركة.

يطفئ إضاءة الغرفة ويحاول النوم، يرى في وطنه لَمَّة رمضان في كل مكان وكل وقت، لَمَّة الإفطار والعزومات، الشاي الذي يتمُّ تجهيزه للبعض مع صوت المدفع، والشيشة والسيجارة (سكَّاتة الخرمانين) كما كان يقول الحاج -رحمه الله-، وهم أسرى التدخين، وحالهم في رمضان لا يخفى على أحد، على الرغم من أنَّ السخرية التي يلاقونها كافية لكي يتركوا ذلك الكيف الأغبر.

لَمَّة النساء والبنات أمام أحد البيوت في الشارع، والحديث عن صلاة التراويح في المسجد وصخب الأولاد وصوت البنات المرتفع في المصلَّى، ممَّا جعل خادم المسجد يتحفهنَّ بكلمات من نوعية: (النسوان ليس لهن صلاة في المسجد)، ثمَّ المزاح وتبادل الخبرات في تجهيز الإفطار والسحور، والتعريج على مسلسلات رمضان وتوقُّع أحداثها في الحلقة التالية، ثم تنصرف كلٌّ منهنَّ لبيتها وتنشغل في تجهيز السحور، حتى تتحول البيوت لأمثال محلات الكشري في القاهرة، حيث الخبط وأصوات المواعين وروائح الطعام.

"الحمد لله.. ربنا يرجعنا بالسلامة ويجمع الشمل ونعيشها معهم ثانية"، يقولها ثم ينام.

يستيقظ فبل الفجر بقليل ليتناول سحوره ويصلي الفجر في المسجد القريب، أما السحور فيأكل ما استطاع دفعه إلى فمه ومضغه وإرساله للمعدة، ليكون معينًا على الصيام، فالطعام ينقصه من يطيب

بحضورهم، والأرض التي تجمعهم له، والأجواء التي تعطيه معناه.

السحور والمسحَّراتي والطبلة.. "اصحى يا نائم وحِّد الدائم رمضان كريم.. اصحى يا عم الحاج.. اصحي يا خالة..."، عدد من أطفال الناحية يصحبون المسحراتي بالفوانيس لإضاءة الطريق (المضاء أصلًا) ليوقظ الناس (المستيقظين جدًّا) حتى لا يفوتهم السحور(وقد انتهى معظمهم منه أو كادوا)، وكل عام وأنتم بخير.

ولأن السحور في واقع الحال يكون قبيل الفجر مباشرة، حتى يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون، السحور وصلاة الفجر حاضر، كانوا يستمعون للمسحراتي على طبلته وصوته المطرب الجميل، الذي تبثه الإذاعة ويعرضه التلفاز بعد منتصف الليل، كانوا يستمعون لسيِّد مكَّاوي ويتفاعلون معه.

ولأنه كان يسمعها دائمًا، وصار يحفظها ويغنيها، فقد بكى حينما تذكَّرها وتذكَّر الناس وهم يرددون مع مسحَّراتي الإذاعة حين يقول:

اصحى يا نايم

وحد الدايم

وقول نويت

بكره إن حييت

الشهر صايم

والفجر قايم

اصحَى يا نايم

وحد الرزَّاق

رمضاااااان كريييييييم

مسحراتي قولوا والله زمان

منقراتي وادي نقرة كمان

طوال السنة في حبكم هيمان

قولوا العوافي يللي قلبك وافي

من القوافي لما خدت الأمان

قلدت بحر النيل بلا استئذان

بين الشواطئ أمشي في الأحضان

وأضاحك الفجرية واسقي الغيطان

وأهدي الكباري نظرة الولهان

وأكسر خيالي في كل عود إنسان

وفي نيتي أكبر من الفيضان

الضي بعد الري من أسوان

عبرة حياتي وصنعة الفنان

معنى المروءة وزرع الاطمئنان

في كل مطرح لما ألاقي حنان

وألاقي قعدة تجمع الخلان

وألاقي نسمة من هوى الأوطان

وألاقي قمح جنب منه ريحان

وألاقي طيب: أفتكر رمضان

المشي طاب لي والدق على طبلي

ناس كانوا قبلي قالوا في الأمثال

الرجل تدب مطرح ما تحب

وأنا صنعتي مسحراتي في البلد جوال

حبيت ودبيت كما العاشق ليالي طوال

وكل شبر وحتة من بلدي حتة من كبدي حتة من موال

رمضان حبيب الندى بالعودة أيامه

أنا قلبي ياما نده على معنى أيامه

أذكر المؤمنين بالحق وصيامه

يا مصر يا جنة خضرا ويَّا رباط الخيل

وجب من الليل جهاد الفجر وقيامه

اصحَى يا نايم وحد الدايم

السعي للصوم خير من النوم

دي ليالي سمحة نجومها سبحة

اصحَى يا نايم يا نايم اصحَى

وحد الرزَّاق...

رمضاااان كريييييييم

يستمعون للمسحراتي ثم يقومون بتجهيز السحور، ويتذكَّر سحوره هناك حين كان النوم يغالبه، لكن وجودهم حوله يوقظه ويفتح شهيته للطعام، والإشفاق والضحك على الأطفال الذين يصرون على الصيام، فأحدهم توقظه الأمُّ للسحور، فيأكل مغمض العين، تدسُّ الأم الطعام في فم صغيرها، حتى إذا استشعرت أن ذلك الكم يكفي، وضعت كوب الماء على فمه ويشرب حتى ترتوي هي، وتعزم على ألَّا تسمح له بالصيام بعد اليوم، حتى لا يوجع قلبها في السحور.

وهذه الصغيرة التي لا تنام لأنها تشك في أنهم لن يوقظوها للسحور، حتى يجبروها على الإفطار لأنها صغيرة السن، والولد الذي يمنُّ عليهم بين كل لقمة وأختها أن الفول و(الطرشي) من مجهوده ووقفته كثيرًا عند البائع، وبراعته في سبق أقرانه في الشراء، والتندُّر على كل هؤلاء في جو من البهجة والمحبة والرحمة يناسب الشهر الفضيل.

هنا في غربته، ينتهي من سحوره ويشرب كوبًا من الشاي أعدَّه في أثناء سحوره، والشاي في القرية هو المشروب الرسمي والشعبي، هو كرم الضيف، وضرورة ما بعد الوجبات، وهو رفيق التجمُّعات والسهر والسمر، والأهم أن به يستقيم الرأس ويعتدل المزاج وتواجَه الصعاب، يضحك حين تذكَّر عمَّه الحبيب، وقد غلبهم النوم فلم يستيقظوا للسحور، قاموا قبل الفجر بدقائق فلم يهتم لضياع السحور، فالمشكلة هي الشاي، فما كان منه إلَّا أن ابتلع تلقيمة من الشاي الجاف وشرب وراءها الماء، حتى يهوِّن عليه صيام اليوم.

يبدو أن المسكين كان يريد التخطيط ليومه، لكن لا شيء يدعو للتخطيط، فحتى في شهر رمضان الحياة في الغربة روتينية، نسخة مكررة يتم إعادتها يوميًّا، صلاة الفجر، وبعض النوم، ثم الذهاب للعمل، والعودة، فالإفطار، ثمَّ الصلاة في المسجد، وأخيرًا النوم.

لكن حياة أخرى مملوءة بالحياة، إنها ذكريات الوطن، وطعم الصوم فيه، آآآآهٍ طويلة حين يتذكَّر أوَّل صيام له وفرح والديه، ويتذكَّر العمل بالحقول في رمضان من بعد صلاة الفجر حتى قبيل الظهر، وكيف كان الشعور بالعطش حينها، ما يجعلهم وهم عائدون إلى البيوت، كلَّما مروا بمصدر مياه –طرمبة أو حوض ماكينة ريٍّ أو زير فخار أو القلل القناوي– يبللون رؤوسهم ويغسلون وجوههم، وقد يشرب بعضهم خلسة، وتبدأ الاتهامات بين الأطفال بتضييع الصيام، حتى يحكِّموا الثقة منهم، فيطلب أن يخرج كلٌّ لسانه ليعلموا إن كان صائمًا أومفطرًا.

رمضان في قريتنا حياة، حيث ينتهي العمل مبكِّرًا، وكل الصلوات في المسجد جماعة، والنهار له أكثر من طريقة تجعل اليوم يمر سريعًا، ما بين قراءة الورد القرآني، والتجمع لممارسة بعض الألعاب ومتابعة الدورات الرمضانية، أو النوم لمن يسهر الليل، أو الجلوس في الشارع مجموعات، ومتعة مشاركة كبار السن وهم يسلُّون صيامهم بممارسة لعبة السيجة، وحرص البعض منهم في إعداد طبق السلاطة بنفسه.

وكان الكثيرون يقضون أكثر اليوم داخل المسجد، فلم تكن المساجد تغلق أبوابها طوال أيام رمضان، فبعد صلاة الظهر كانت المساجد أشبه ما تكون بدوَّار العائلة لجميع المقيمين حولها، وبخاصة في ظل سعة المسجد وكثرة نوافذه مقارنة بالبيوت، ووجود المراوح التي تضفي جوًّا باردًا رطبًا يجذب المصلين لقضاء فترة القيلولة فيه، وقليل من البيوت من كانوا يملكون المروحة، فتجد في المسجد من ينام بعض الوقت، وهناك من يصلِّي، وكثيرون يتنافسون في قراءة القرآن، ويكون التحدِّي في عدد ختمات القرآن في رمضان، وفي أطرافه جلسات النقاش مع بعض الشيوخ والأساتذة في الفقه والفتوى وأحكام الصيام، ودائرة من الشباب يتحدَّثون في السيرة والحديث، وهناك يجلسون فرادى طلَّاب يذاكرون استعدادًا

للامتحانات القادمة، ولم يجدوا أفضل من المسجد مكانًا للمذاكرة والتحصيل، حتى إن اقترب موعد صلاة العصر توجه الجميع للوضوء وانتظروا الصلاة والدرس اليومي بعد صلاة العصر.

ينقضي اليوم الأول في العمل، يعود متعبا لأن عدد ساعات العمل طويلة، فعلى الرغم من إعلانهم مراعاة ظروف رمضان، فإن مواعيد العمل تضمن لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، وهنا يرى شوارع بلده المكتظة بالناس، ويرى أثر الصوم على الصغار في هدوئهم لأن الجوع قد بلغ منهم مبلغًا كبيرًا، أو كما كان يتندَّر خادم المسجد بقوله: «الشيخ يقول إنَّ الجوع يهد الشياطين ويضعفهم»، وهو الهدوء الذي يسبق عاصفة ما بعد المغرب.

يرجع بعضهم لبيته بالخضار الطازج من الحقل لتتم قسمته بينهم وبين الجيران، وهذا يمسك بيديه أكياس العصائر التي اشتراها لأولاده (في الحقيقة اشتراها لنفسه قبلهم، فالعطش بلغ منه مبلغًا كبيرًا جعله يرى العصير كأنه من نهر الكوثر)، ومجموعة من الشباب تقوم بتعبئة التمر في أكياس، وتجهيز العصائر والماء لتوزيعها على الناس العائدين من أعمالهم والمتأخرين في العودة لبيوتهم عند أذان المغرب، وما يحدث من طرائف يتحاكون بها بعد ذلك.

أحدهم كان حريصًا على الحصول على أجر أكبر عدد من الصائمين، فكان ينتظر سيَّارات الأجرة القادمة من القاهرة، وفيها عدد كبير، فيقف أمام السيارة يقطع الطريق، ثم يلقي بالتمر وأكياس التمر هندي على الركَّاب، فتنفجر بعض الأكياس على الركاب، فيجعلهم يفطرون قبل المغرب بشتائم منتقاة له ولفريقه.

وهذا عبَّاس الفتوَّة الذي يتغيَّر حاله في أثناء رمضان فقط، حين علم من خطبة الجمعة أجر إفطار الصائم أصرَّ أن يكون في انتظار العمَّال العائدين من المصانع مع المغرب، ليعطيهم التمر والماء والعصائر، فإن سبقه أحدهم خرج عن هدوئه مهدِّدًا: "بقول ايه يا عمِّنا، أنا واقف عشان آخد أجر صايم، هتفطر منِّي ما ليش دعوة بأي حد، ما تخلِّينيش أفطر عليك"، فيفطِر العمَّال -على الرغم منهم- بما أعطاهم عبَّاس.

ومجموعة في كل مسجد تتولَّى إفطار الصائمين فيه، وتدريب الأطفال على عمل الخير، حيث يقومون هم بإعداد ما يفطر عليه المصلُّون وتقديمه لهم.

ثمَّ يبتسم وهو يتذكر بعض العائدين من المسجد بلهفة حتى يلحقوا نصيبهم من الإفطار في البيوت، وضحكاتهم من قول الحاج عبد الرحيم لهم: «ايه اللي غاصبك لمَّا انت ملهوف ع الأكل كدا؟».

اليوم موعد مباراة فريقه في الدورة الرمضانية، عليه أن يسرع في إنهاء العمل والعودة للبيت، فالقرية لا تتاح فيها الدورات الليلية إنما تتمُّ عصرًا، يأتي بملابس الكرة، يرتديها في المنزل توفيرًا للوقت، وبعضهم كان يلعب بـ (الجلابية) يثنيها ويربطها على خصره، الملعب ممتلئ باللاعبين والجمهور، اللاعبون في الوسط والجمهور هو من يصنع حدود الملعب، المباراة ممتعة ولا تشعرك المنافسة والجهد المبذول وكمية العرق بأن اللاعبين صائمون، تنتهي المباراة وإذا بكلٍّ منهم قد جفَّ ريقه وصار (خشبة) كما يقولون.

الآن تمر اللحظة بساعات من شدة العطش، ما الذي يدفعنا للعب في هذا الوقت؟ يتساءل وهو يبحث عن ريقه في فمه، ينظر في ساعته، أذَّن الله يهديك (يتحدَّث إلى مؤذن المسجد القريب الذي بالطبع لا يسمعه) لم يعد بحاجة إلى الطعام على الرغم من جوعه الشديد قبل المباراة، يريد فقط أن يشرب، الماء ولا شيء غيره.

لا يغيب عنه منظر الشوارع قبل دقائق من المغرب، نشاط وسرعة وفرحة لا تخفى على الوجوه وترقب للحظة الأذان، بعض الجدَّات والأمهات يقفن على الأبواب في انتظار العائدين، يسمع صوت حركة مكبِّر الصوت في المسجد، ويسمع صوت الأذان من الإذاعة، ينطلق صوت الشيخ محمد رفعت الله أكبر الله أكبر.

سمع الأذان لكنه لن يفطر قبل سماع مؤذن المسجد، ومؤذن المسجد يفطر أولًا ثم يؤذن، وهنا يتلقَّى وابلًا من اللوم على تأخير الأذان، ويتحول كلٌّ إلى فقيه يذكر قول الرسول ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر».

أخيرًا يؤذن للمغرب، يشرب الماء ثم يشرب العصير ثم الماء، لقد صار بطنه مثل القربة من كثرة ما فيها من السوائل، ولا يتناول من الطعام إلا القليل، لا يهمُّ، فبعد التراويح سوف يبدأ إفطاره (التعتيمة)، إنَّها وجبة مستحدَثة عند البعض ليكتمل عدد الوجبات في ليل رمضان ثلاثًا، مثل عددها في غيره.

يهزه الحنين إلى هذا الـ (رمضان) في بلده، ويخرج من ذلك الحنين مؤقَّتًا ويعود لتجهيز الإفطار، وهنا فصل جديد من إتقان البراعة في التمثيل، قبل وجود النت والجوال ومكالمات الفيديو كانت الأمور بسيطة، يكفيه أن يعلِمهم مرَّة كلَّ فترة أنه بخير، لكن الآن لا تطمئن الأمُّ حتى تسمعه كل يوم وترى ماذا يأكل، وكيف يعيش، وبخاصة إن كان الوقت رمضان، بالفعل هو يكفيه من الطعام ما يسدُّ جوعه، والبطن لا يحتاج في هذه الظروف أكثر من هذا، والحمد لله الطعام متوفر، ويكفي الغرض ويزيد.

من الأمور الموجعة لقلب الأمِّ في الريف -حيث كان يعيش- ألَّا يدرك أحد أبنائها أذان المغرب في بيته أو في المسجد المجاور له، وهكذا الكثيرون؛ لذلك نرى تلك الجلبة والتوتر في دقائق ما قبل المغرب، وقد يحدث فيها بين الناس ما يعتذرون عنه بعد ذلك، ويرمون تلك الدقائق ظلمًا بأنها ساعة شيطان، ولكنَّ الحقيقة أنَّ الصوم ينكسر بشربة ماء، والبطن يشبع بعد جوع النهار بالخبز الحاف، فالأمر أبسط كثيرًا مما يفعلون.

المسكين هنا في غربته يستطيع صنع أنواع من الطعام، ويجيد الطبخ، ولكن كما يقولون: (النفس اللي تاكل)، في غير رمضان يستطيع التمويه على والدته، أما في رمضان فلا بدَّ أن تطمئن بنفسها كل يوم على ما يأكله، فلا يجوز في عرفها أن يأكلوا هم أصنافًا وأنواعًا كثيرة، وهو في غربته لا يتذوَّقها مثلهم، فلا بدَّ أن يبرَّ نفسه بأنواع الأكلات والحلوى، وقمر الدين والخشاف والكنافة والقطايف وكل ما له صلة برمضان، ولو كان في إمكانها لطلبت منه أن تشرف هي على ضبط الملح في الطعام والسكر في أصناف الحلو.

صار مضطرًّا أن ينوِّع في طعامه، وأن يرسل لها يومًا بيومٍ صنع يديه وينقل لها بثًّا مباشرًا من المطبخ، وبالطبع يستمع لتعليماتها حتى ينضج الطعام، فيضع بعض البهارات هنا، ويهدئ النار هنا، ولا يضع الملح الآن بل ينتظر قليلًا حتى ينضج اللحم، ويغسل الدجاج بالدقيق قبل أن يتبِّله، وبالهنا والعافية عليك يا قلب أمك، يرسل إليها وإلى أخواته صور الطعام من زوايا مختلفة تبرز جودته وتخفي عيوبه، ومعها عبارة وضحكة وقلب (عمايل إيديا وحياة عينيا)، اليوم تستطيع أمُّه أن تتناول إفطارها.

الأمر في حقيقته مرهق، فهو يكفيه أن يطبخ مرَّة تكفيه أسبوعًا أو أكثر، وبالفعل هو لا يميل إلى أكل أصناف الحلوى، لكنَّه يأكل لتهنأ أمُّه، والشيء الرائع الذي لاحظه أنَّ الطعام بهذه الطريقة صار شهيًّا أكثر من ذي قبل، ووجد نفسه مقبلًا عليه وراغبًا فيه، وبعد تفكير علم أنَّ السبب في ذلك هو نَفَس أمِّه في الطعام، فهي -في الواقع- التي طبختْ له عبر المكالمات (طبيخ أون لاين)، وهي من باركت الطعام بوجودها، وإن كان لا شيء يعوِّض الطعام من يديها.

يفطر وحده، كما تسحَّر وحده، كان يظنُّ أنَّه سيلتهم كل الموجود من الطعام، فقد كانت ساعات الصيام طويلة، وبلغ منه الجوع والتعب مبلغًا عظيمًا، لكنَّه حين بدأ الإفطار وجد نفسه قد شبع قبل أن يأكل، فاضطر إلى ممارسة الضغط على نفسه، وأجبرها على الأكل حتى ظنَّ أنَّ الطعام لم يعد له منفذ، ورفع الطعام ففوجئ أنَّ الطعام لم ينقص كثيرًا ووضعه في الثلاجة، نعم، فإنَّ فمه الذي كان يأكل، أمَّا هو فقد كان يشاهد مائدة البيت ولَمَّة العائلة.

يشرب كوبًا من الشاي، ويتجهَّز لصلاة التراويح، ويجد نفسه يشارك أقاربه وأصدقاءه حوار أول قيام في رمضان: "إلى أيِّ مسجد تذهب؟ وأيُّ إمامٍ الصلاة خلفه أفضل؟ أذهب لمسجد العائلة، لا لا.. فالإمام هناك يدخل في سباق، ولا ينتهي حتى تنتهي الصلاة، يصلي الركعة بآية، ولو استطاع لقسمها على ركعات، نسميه (الفانتوم)، الصلاة خلفه مفيدة في هضم ما التهمناه في الإفطار"، ويضحكون عندما يتذكَّرون العمَّ (أبوزيد) بعد أن انتهى من الصلاة خلفه، وهو ينهج ويمسح عرقه بمنديله المحلَّاوي الذي بحجم المنشفة، كأنه خارج من اختراق الضاحية.

بل نذهب لمسجد الناحية الشرقية، لكنَّ العامل هناك يمارس سلطته ويغلق المراوح على الرغم من الحرارة الشديدة، لأنه كما يقول: «هواء ربنا أحسن، والهواء الصناعي يكسِّر العظام»، وما يتبع ذلك من حوار بين كل ركعتين، لأن بعض المصلين يستغلون دخوله في الصلاة ويقومون بتشغيلها، والأدهى أنه مع إطفاء المراوح يغلق الشبابيك خوفًا من دخول الناموس، حتى ضجَّ أحد المصلِّين: "حرام عليك أنت تعذِّبنا...لماذا تغلق الشبابيك؟ الناموس ليس غبيًّا.. سيدخل من الباب المفتوح"، فيضحك الناس.

"إذن المسجد خلف محطَّة الكهرباء، لا، فالمواضئ ودورات المياه هناك قليلة وغير نظيفة، ونحن في رمضان، لا نرحم بطوننا في الإفطار ونحتاج إلى تجديد الوضوء بين الركعات"، وتكثر الاقتراحات، حتّى يغلبهم الأستاذ هشام بقوله: "هو شهر في العام، لمَ الحيرة والمسجد الكبير في أول البلد موجود؟ الشيخ أبو السعود هو الإمام، صوته جميل ويساعد على الخشوع ويختم القرآن في رمضان، غير الأساتذة الكرام

الذين يلقون الدروس، وأغلب الشباب والناس الطيِّبين يصلون التراويح والفجر هناك"، فيردُّ أحدهم: "لماذا لا نصلِّي خلفك أنت في المسجد القريب؟ ما شاء الله صوتك ندي وقراءتك رائعة، ويقولون إن العمدة عامل جو جميل في المسجد".

العمدة هنا هو أحد كبار الشباب المحبوبين من أهل البلد، أحد قادة العمل الخيري، سخيٌّ وخفيف الظل وكريم واجتماعي لأبعد الحدود، يعامل الجميع كأنهم من أسرته، من أصغر طفل يجذبه لدخول المسجد بالدعابة والحلوى، لأكبر بائعة خضار على ناصية البلد يوصيها بدينها قائلًا: «الإسلام أمانة يا حاجَّة خضرة»، فتضحك ويضحك معها الحاضرون، كان يضفي جوًّا رائعًا على المسجد في رمضان، وبخاصة في أيام الاعتكاف، ولا ينسى الشباب نداءاته الخاصة به في المعتكف، التي كانت تبعث الابتسامة على وجوه الجميع: "السحور يا بركة... صلاة القيام يا لِوَا... اصحى يا زلابيا...".

بعد كلِّ هذه الذكريات وهذا الحوار يجد المسكين نفسه في غربته ليس أمامه إلَّا المسجد القريب من مسكنه، فيدعو الله أن يعيد هذه الأيام ويجمع الشمل بالأهل والأحباب والمسجد الكبير.

وتمرُّ أيام رمضان عليه ثقيلة، وتروح لياليه حزينة، تثير شجونه وتحرِّك قلبه نحو وطنه وبلده وأهله وأحبابه، يتجدَّد شوقه إلى البيت والحي والمسجد والغيط والملعب والشارع، يتمنَّى أكثر من أي وقت مضى أن يعود، أن يتسحَّر معهم وأن يفطر من يد أحبِّ الناس لقلبه، ويقسم أنه لو كُتبَت له العودة فلن يكون وحده أبدًا، لأنه تعلَّم الدرس وعلم قيمة اللمَّة والعائلة والصحبة والوَنَس.

يشعر باقتراب الشهر من نهايته، وتمرُّ أمامه تلك الأيام والليالي الأخيرة من رمضان في بلده، ووسط أهله وأحبابه في قريته، تلك الأيام التي كانوا يتندَّرون عليها بمقولة لأحد الخطباء المشهورين المحبوبين، فلئن الكثيرين حوَّلوا رمضان لشهر الطعام والكعك وتجهيز ملابس العيد، قال هذا الشيخ عن رمضانهم: «أوله مَرَق (الاهتمام بالطعام)، وأوسطه حَلَق (كناية عن التجهيز للكعك وأخواته)، وآخره خَلَق (ويقصد انشغال الناس في تجهيز ملابس العيد)».

في ليلة رؤية هلال العيد، يعود من عمله ومعه كيس فيه طعام اشتراه من أحد المحلات، فقد ملَّ من الأكل من صنع يده، ولم يستطع أن يجامل الطبَّاخ الذي بداخله أكثر من ذلك، أما قلبه وعقله فيعودان إلى الوطن وهو يتناول إفطاره، حيث تلك الأيام هناك في وطنه، يُرى الزحام في كلِّ مكان، لم تكن محلَّات الملابس الجاهزة منتشرة مثل الآن، والوضع لم يختلف كثيرًا بين الماضي والحاضر، فالناس حولها لا حصر لهم، يقيسون، ويتفاوضون على الثمن، ويشترون، ومنهم من يأتي للمشاهدة والمقارنة.

وحين يرجع أكثر تأتي أمامه صورة الترزي (الخيَّاط)، الذي يا سعده من كانت له به علاقة أو قربى، فسوف يعيش الشهر مطمئنًا أنه سيصلِّي العيد هو وأولاده في ثيابهم الجديدة، ولن يحتاج إلى الذهاب كلَّ يومين في أوَّل رمضان للاطمئنان على سير العمل في خياطة ثيابه، والمرور عليه كل يوم في وسط الشهر، ثم السلام عليه لتذكيره عند كلِّ صلاة، وفي الأيام الأخيرة يذهبون له بالتناوب كلَّ ساعة، والبعض يقيم

عنده حتى يأخذ الثياب، ومن الممكن أن يرتديها في الدكان بعد تسلُّمها ويتوجه مباشرة لصلاة العيد، في تلك الأيام يشعر الترزيُّ أنه أهم من رئيس الجمهورية والمحافظ.

ومن نتيجة هذا الزحام على الخيَّاط، أن بعضهم يضطر للتسرُّع في تسليم الشغل لأصحابه، أو الهروب بادِّعاءات وحجج مختلَقَة ومختلفة في أحيان أخرى، فيأتي يوم العيد، وبعض الأطفال يبكون لعدم حصولهم على الجلابية المطلوبة مثل أقرانه، وبعضهم تبدو عيوب ثيابه للناظرين، لكنه أصرَّ على ارتدائها حتى لا يقول الناس إنه لم يشترِ جلابية العيد.

ويتذكَّر دكاكين الحلاقة، وانتظار كلٍّ لدوره، فبعضهم يرابط ويحجز دوره قبل ليالٍ من العيد، لكنَّ المشكلة أنَّ الحجز يكون بأسبقيَّة الحضور والوجود داخل الدكان، لذلك هناك مَنْ يصلِّي فجر يوم الوقفة ويذهب لينتظر سعادة الحلاق ويضمن دورًا وترتيبًا متقدِّمًا.

وهنا يفرض دكان الحلاقة في الناحية نفسه على الذاكرة، فهو لأخوين محبوبين، يكتظ بالناس من قبل العيد بأيام، تراه مجلسًا للعلم حينًا، و(استوديو تحليلي) في وقت المباريات، وبرنامج توك شو سياسي وفني واجتماعي، وفرصة لمتابعة أعمال رمضان لمن فاته بعضها، وهو مكان للقاء وقضاء الوقت في تبادل الحديث (قابلني في دكان عيد الحلاق)، وفوق ذلك فهو مكان للمزاح والضحك والمقالب وما أكثرها! لا ينسى الحاج ناجي حين استفزه أحمد الحلاق وأراد تأخيره عن دوره في الحلاقة، فأقسم أن يشتري حلاقًا بدلًا من القعدة في هذا الدكان، وانتهى الموقف بقلم من الأخ الكبير على قفا الصغير فضج المكان بالضحك.

يعود إلى غربته، تغلبه دموعه وهو يحدِّث نفسه: "انتهى رمضان وانتهت ذكرياته الجميلة، اللهم بلغنا رمضان أعوامًا وأعوامًا في بلادنا وبين أهلنا وأحبابنا".

الفصل الخامس

بأيِّ حالٍ جئتَ يا عيد؟

وبينما يسرح بخياله تخترق أذنه ما يبشِّر بقدوم العيد، فها هو شهر رمضان انقضى سريعًا، مثل ضيف حبيب يريد أن ينطلق للطريق، وأصحاب الدار يمسكون بثيابه يرجونه ألا يذهب، "لسه بدري، أنت لم تقم معنا كثيرًا، الوقت مرَّ في وجودك كأنَّه ثوانٍ"، ويظلُّ يردِّد الأغنية مع مصدرها كلمة كلمة، فهو يحفظها وتعجبه كلماتها المعبِّرة عن ذهاب الضيف سريعًا، وما كان أطيب مقامه، جمال الشهر وفضله، وكرمه على الفقير واليتيم، الشهر الذي يقدم بفرحة ويغادر بفرحة، "والله لسه بدري يا شهر الصيام".

تمّ البدر بدري	والأيام بتجري
والله لسَّه بدري والله	يا شهر الصيام
حيانا هلالك	ردِّينا التحية
زهانا جمالك	بالطلعة البهيَّة
دي فرحة سلامك	ولَّا وداع صيامك
والله لسه بدري والله	يا شهر الصيام
يا ضيف وقته غالي	وخطوة عزيزة
حبك حب عالي	في الروح والغريزة
أيامك قليلة	والشوق مش قليل
والغيبة طويلة	ع الصبر الجميل

لسه بدري حبة	يتمنى الأحبة
والله لسه بدري والله	يا شهر الصيام
بتحلِّف يتيمك	ما تلمح دموعه
وتسرُّه بقدومك	وتنوَّر شموعه
وتسيب يوم وداعك	فوق الأرض عيد
يا هالل بفرحة	ومفارق بفرحة
والله لسه بدري والله	يا شهر الصيام
تم البدر بدري	والأيام بتجري
والله لسه بدري والله	يا شهر الصيام

إذن فقد أعلنوا رؤية هلال شوَّال، لا.. لم يعلنوها بعد، ويضحك حتى تدمع عيناه ويصفِّق مثل المجنون وهو يتذكَّر عمَّه عتمان، حين أقسم له أن الرؤية لم تثبت ويتحدَّى الجميع وعنده حجَّته القويَّة، "فهم لم يذيعوا أغنية "يا ليلة العيد آنستينا" حتى الآن، صدقوني غدًا صيام والعيد بعد الغد".

لكنه الغريب الذي لا يشغله الأمر كثيرًا، فيوم العيد هو يوم مثل بقيَّة الأيام، مع تغيير في برنامجه فقط، فالبعض قد يعني له العيد الحصول على إجازة وراحة من مشقة العمل وتعنُّت المديرين والمشرفين، والبعض يرى يوم العيد عملًا بأجر إضافي يسدُّ بابًا من أبواب المصروفات، والبعض لا يتغيَّر عنده شيء، فهو في بلد لا تغيِّر أنظمتها لعيد المسلمين، والبعض يكون العيد بالنسبة له يومًا مختلفًا، فهو يسهر ليلته في الحديث مع الأحباب والتعييد عليهم، ويصلي الفجر ويتصل بذويه ثم يقضي اليوم نائمًا، فهو في الحقيقة لا يعلم ماذا يفعل في هذا اليوم.

فليس في الغربة بيوت الأقارب الذين يخطِّط لزيارتهم ويجهِّز العيدية لأولادهم، ولا العمَّات والخالات والأخوات ونصيبهم من العيديَّة محفوظ، ليس في الغربة شارع لا بد أن تمرَّ على بيوته بيتًا بيتًا تهنِّئ وتجلس عند كل واحد ولو دقيقة، فيوضع أمامك الكعك والبسكويت والترمس، وبسرعة خاطفة يقدَّم لك كوب الشاي، مع سيل من القَسَم عليك أن تجلس وتشرب وتذوق الكعك من عمايل أيدينا.

ليس في الغربة أولاد العم الذين يخرجون معًا، لتهنئة بيوت العائلة، فيعالج بعضهم عيوب البعض من كسوف، أو عدم معرفة ما يقال في المناسبات ومنها العيد، أو تقصير كبير تجاه الأقارب وعدم زيارتهم إلا في العيد، تلك الصحبة التي تعود من (اللفَّة) بكمٍّ من الضحك والسخرية والاستهزاء يصنع موسمًا ناجحًا لأي مسرح كوميدي.

والغربة ليس فيها الصحبة والتشكيلة الكبيرة من العقول والمواهب والإمكانيات، التي تجهز لقضاء أيام العيد الثلاث أو الأربع، كل يوم في مكان وبطريقة مختلفة عن الأيام الأخرى، مع ترتيب نوعيات الطعام ومن يجهِّزه ومن يحمله للمكان، وتوفير أدوات اللعب والمنافسات والمباريات، والتحدِّيات لقضاء أمتع الأيام.

لن أرى في الغربة مشاهد الأُسر الناشئة، وهم متَّجهون إلى بيت عائلة الأم، فهي من طقوس العيد، قضاء يوم من أيام العيد عندهم، للأطفال العيدية والاهتمام والأكل والشرب واللعب، وللأم الأنس واللمة واسترجاع أيام ما قبل الزواج، ولا بأس من بعض الغيبة عن فلانة وفلانة، وكلمات لا يسمعها أحد بينما يسمع الشارع الضحك الناتج عنها.

الحمد لله يا عم عتمان، بكره العيد، فكلما أتيت بقناة سمعتها:

يا ليلة العيد آنستينا	**يا ليلة العيد آنستينا**
يا ليلة العيد آنستينا	**وجددتي الأمل فينا**
هلالك هل لعنينا	**وغنَّينا فرحنا له**
وقلنا السعد هيجينا	**على قدومك يا ليلة العيد**

العجيب أنه يلاحظ لأول مرة وهو (سرحان) مع الأغنية أن كلماتها لا تناسب أبدًا نهاية الشهر الفضيل، حيث الدعوة للكأس والخمر، وإيحاءات الحب والمحبِّين وليلة العيد، ونفاق الحاكم، لكنها اشتهرت لأن مقدَّمتها عن ليلة العيد.

جمعت الأنس ع الخلان	**ودار الكاس على الندمان**
وغنى الطير على الأغصان	**يحيِّي الفجر ليلة العيد**
حبيبي مركبه تجري	**وروحي في النسيم تسري**

قولوا له يا جميل بدري	حرام النوم في ليلة العيد
يا نور العين يا غالي	يا شاغل مهجتي وبالي
تعالى اعطف على حالي	وهني القلب بليلة العيد
يا نيلنا ميتك سكر	وزرعك في الغيطان نور
تعيش يا نيل ونتهنى	ونحيي لك ليالي العيد
يعيش هارون يعيش جعفر	ونحيي لهم ليالي العيد
يا نيلنا ميتك سكر	وزرعك في الغيطان نور
يعيش فاروق ويتهنَّى	ونحيي لُه ليالي العيد

يعود إلى القرية ليلة العيد، ويحكي لصديقه: العيد في قريتنا مبهج كمولود كنا في انتظاره من وقت طويل، اسمه العيد ولن نجد لذلك اليوم اسمًا أفضل من اسمه، فكل ما فيه يعبِّر عن العيد، لعل أكثر أوقاته تأثيرًا في النفس صلاة العيد وتجمع الناس في الخلاء، تكافل وتراحم ومودة وحب، وفرحة تكفي الجميع، بل يزيد منها من يذهب ليخفِّف عن أصحاب الحزن حزنهم.

في ليلة العيد يتجمَّع الشباب مع أصحاب الرأي في كل منطقة، لينظِّموا صلاة العيد، ويعرض كثيرون المساهمة بالمكان، ويريد كلٌّ منهم أن تكون الصلاة في أرضه، فقد أخلاها منذ فترة وعطَّل زراعتها لتنال شرف صلاة العيد فيها، ويستقرون على المكان المناسب لمصلى رجال وآخر للنساء بمدخَلين متباعدين، ويبدأ توزيع العمل على الشباب، فريق عليه الصوان والفرش من المسجد، وفريق عليه الإذاعة والميكروفونات والكهرباء، ومجموعة تتولَّى أمر التكبير مع موجات من المزاح معهم، والتأكيد عليهم بعدم وجود فلان وفلان معهم، لأنهم لو أمسك أحدهم بالميكروفون فلن نستطيع ردَّه بقية اليوم، وصوته ما شاء الله (يطفِّش) المصلين، وأحدهم يكبِّر بطريقة خاطئة تجلب الضحك وتفقِد الصلاة وقارها، ويجهِّزون أيضًا بعض الأناشيد التي سيتمُّ تشغيلها بعد الخطبة والصلاة.

ولا ينسون استثمار الفرصة لجمع الصدقات في هذا اليوم للفقراء والمساكين، وللمساهمة في الأعمال الخيريَّة بالقرية، ويتمُّ تكليف بعض الوجوه المعروفة الأمينة المحبوبة من الجميع بهذه المهمَّة، ويضحك

حين تذكَّر المزارع الطيِّب عبد المقصود، الذي حرَّضه عمُّه سلَّام (أحد المشهورين بالمقالب)، وأفهمه أن من يجمع الصدقات تكون من نصيبه، فقام معهم لجمع الصدقات في المصلَّى، وبعد أن فرغ أراد أن يذهب بما جمع، وحين حاولوا منعه قال لهم: «أنا اللي جمعتهم.. هذا حقي»، فضجَّ المكان بالضحك، ولم يستجب لهم إلَّا بعد أن تحدَّث معه شيخ الجامع ففهم الأمر وجلس راضيًا يضحك على ما فعل وينظر لصاحبه قائلًا: «منك لله يا عم سلَّام».

يستيقظ أهل المنطقة التي فيها المصلى مبكِّرًا، يجهِّز بعضهم التمر والعطور -كلٌّ على حسب مقدرته- ليقابل بها المصلِّين، ويصطفُّون للسلام على القادمين والترحيب بهم والتهنئة المتبادلة بالعيد، وتنتشر في المكان رائحة الحبِّ وصلة الأرحام، فالقلوب نقيَّة والوجوه باشَّة والنفوس صافية، والمشهد يشبه فرحة زواج والجميع أهل العروسين، والجميع هم (المعازيم).

وهنا تتملَّكه الحسرة ويتساءل: هل في الغربة عيد؟ هل يعيش المغترب الأعياد بنفس شعورها في وطنه؟ العيد شعيرة من شعائر الله، وقد أمرنا الله أن نعظِّم شعائره، لذلك فالعيد في كل الأحوال عيد، وأذكر أن والدي -رحمه الله- كانت وفاته يوم وقفة عيد الأضحى، وفي اليوم الثاني للوفاة خرجنا للصلاة مع الناس، وتحدَّثنا بنفس مفردات العيد، التهنئة والمباركة والدعاء بأن يكون عيدهم القادم على جبل عرفات، وكنا حريصين على إعطاء الأطفال العيدية وإشعارهم بالعيد، وعدنا للبيوت نهنئ النساء والبنات بالعيد، ثم عدنا لأجواء العزاء.

وأتذكَّر جيِّدًا جانبًا رائعًا من جوانب التكافل في الريف حينها، حيث كان الأقارب والأصدقاء يرسلون أبناءهم وبناتهم لأسرة المتوفَّى، يلتقون أقرانهم لإخراجهم من البيت وجوِّ العزاء، ليعيشوا العيد بكل ما فيه، فهم أطفال ومن حقِّهم الشعور بالعيد، وحتى يترَك البيت للعزاء والمعزِّين.

العيد شعيرة يعيشها المغترب لأنها كذلك، في ليلة العيد يرتِّب أموره، ويجهِّز ثوبه الجديد ما أمكنه ذلك، ويذهب للحلَّاق إن سمحت ظروف عمله بهذا، قد يشتري ما يجعله يعيش جو العيد مثلما كان في وطنه، الكعك والبسكويت والفواكه، بل ومن أجل أمِّه يقوم بنقع الترمس وتجهيز الفول النابت، وتجهيز الطعام الذي سيعرضه عليهم يوم العيد ثمَّ يأكل بعضه ويحيل الباقي إلى الثلَّاجة، يحاول الترتيب مع بعض المغتربين مثله للخروج وقضاء يوم العيد في أحد الأماكن، وإن كانت معه أسرته فهذا الأمر ضروري ولا بدَّ منه.

من المواقف والأيَّام التي تجعل المغترب يكره الغربة ويلعن أسبابها التي دفعته إليها، أيَّام الأعياد وما يشبهها، فلعله على الرغم من حزنه ذلك اليوم الذي طبعه في الأصل الفرحة، يتحمَّل مرور ذلك اليوم إن غابت المؤثِّرات، لكنَّ اليوم يصير أصعب بأم تشتاق لحضن ولدها وقبلة منه على يديها، وكل عام وأنت بخير يا أمي تخرج من فمه، والعيد القادم تكونين على عرفات بإذن الله يردِّدها لسانه، فهو يعلم أن العالم كله لن يسدَّ مكانه في هذا الأمر تحديدًا.

قد يمر العيد سعيدًا أو يمرُّ وكفى، إن لم يستمع لـ "كل عام وأنت بخير يا بابا.. كنت أتمنى تكون معنا في العيد.. العيد من غيرك ليس عيدًا.. متى تأتي؟ أو متى تحجز لنا فنأتي إليك؟".

قد يكون العيد عيدًا والسلام إن لم تنزل دموع الزوجة على الرغم من محاولتها الضحك والتظاهر بفرحة العيد، وإن لم تظهر على أخواتك في مكالمة التهنئة بالعيد شوقهن الشديد لك، وتعطُّشهن لرؤياك وأخذ العيدية منك أنت لا ممَّن ترسله نيابة عنك، الجميع يحاولون عدم التنغيص عليك، لكنها العاطفة حين تخرج عن السيطرة.

يصلِّي العيد، يقضي ما عليه من مكالمات لصلة الرحم والتهنئة بالعيد، يفاجأ بأنه ما يزال في أوَّل ساعة من صباح العيد، يذهب للنوم، جاء العيد.. انتهى العيد.. كل عام وأنتم بخير.

الفصل السادس

حُلْوُ الغُربـة

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلا	وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَةٍ	وَعِلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

الإمام الشافعي

لا يخرج المغتربون من بلادهم حبًّا في الغربة، ورغبة في ترك الأوطان، فلكل مغترب حكاية، الكثير من هذه الحكايات مؤلم والقليل منها يبدو مريحًا، فما الذي يجعل أحدهم يترك وطنه وأهله وأحبابه؟ ما الدافع أن يترك المضمون في وطنه ويذهب للمجهول؛ إلى أرض لا يعرفها وغرباء لم يأنس إليهم من قبل؟ اللهم إلَّا إن كان ممن انقطعت بهم السبل في بلاده، وضاقت به الحال.

وهنا لا ننكر خروج البعض بكامل رغبته، على الرغم من سعة الحال في بلاده، رغبة في إكمال تعليمه، أو البحث عن أجواء أكثر رحابة مما يعيش فيها، أو حبًّا في الانسلاخ من وطن ضاقت به نفسه ورفض استكمال حياته فيه.

ومهما كان السبب في الغربة، ومهما تعددت الدوافع إليها، فإن للغربة إيجابيَّاتها وسلبيَّاتها، ومن الخطأ الكبير أن نتحدَّث بأنَّ الغربة كلها شرٌّ، أو أن نصوِّر الغربة كونها هي الحل لكلِّ المشكلات، وأن الخير المطلق فيها، ومن العيب أن تطبع الغربة (وهي تجربة إنسانية عامَّة) بطابع التجربة الفردية والانطباعات الشخصية، فمن كانت غربته ناجحة سهلة اختزل الغربة في وصفها بالسهولة والنجاح، ومن ذاق الويلات في غربته كان وصفه لها بالهلاك والموت القادم، ومن لم يجربها فليس له أن يرفضها على العموم؛ فقط لأن الإنسان عدو ما يجهله، وليس عليه أن يمدحها ولم يعانِ منها ليلة واحدة.

لسنا هنا في مجال حصر الإيجابيَّات والسلبيَّات، أوعدِّ المنافع والأضرار، لكننا نتحدَّث بصفة عامة عن حلو الغربة ومرِّها، من خلال التجربة وحكايات الغرباء.

اسْعَ يا عَبْد........

فالنسبة الأكبر من الذين خطَّطوا للغربة، أو دُفعوا إليها، ومن المغتربين بشكل عام خرجوا يطرقون أبواب رزق جديدة، وفي داخلهم أمل كبير في أن تفتح لهم تلك الأبواب، وشعارهم الحكمة القائلة: «من

أدام الطرق يوشك أن يفتح له»، فقد أغلقت في وجوه بعضهم أبواب الرزق المتاحة في بلادهم، وضاقت أمام بعضهم، وقد تكون الأبواب ما تزال مفتوحة لكنها لا تكفي متطلبات المعيشة، وقد لا تكون مناسبة للقدرات والإمكانيات والطموح، فالبعض يرون أن العمل المتاح في أوطانهم قاتل لموهبته وطامس لإبداعاته، والبعض يرى أنه لا يتم تقديره كما ينبغي، فهو يستحق قدرًا أكبر من التقدير والتكريم بما يتناسب مع ما يقدِّمه.

«اللي ما يعرفش يقول عدس»

وهناك ممَّن اختاروا الغربة أناس حار الناس في أمرهم؛ فهذا مستقرٌّ في عمل كريم، وله مقابل مادِّي يتمنَّاه الكثيرون غيره، لكنه مع ذلك بحث عن فرصة عمل تمنحه لقب غريب، ولكنَّ المقربين منه يعلمون حاجته للسفر والبحث عن زيادة في الدخل، فله أخوات وبنات، تحتاج الواحدة منهن الكثير من أجل زواجها وتجهيزها بشكل كريم، والدخل في الوطن يكفي فقط للعيش الكريم المستور.

وهناك من يتناوله الناس في أحاديثهم: "ربنا موسَّع عليه، ما الذي يدفعه للغربة؟ لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، فهو في وظيفة تضمن له دخلًا ثابتًا، وعنده عمل آخر يدرُّ له دخلًا إضافيًّا، و....."، ولا يقرؤون المكتوب أمامهم بين السطور في أحوال العباد، فالرجل كان مُصِرًّا على البقاء في بلده، ورفض -قبل ذلك- فرصًا للسفر أثارت زملاءه وجعلتهم يرونه ممَّن يرفسون النعمة بأقدامهم، لكنَّهم لا يرون ما خلف الكواليس، فالأيَّام تمرُّ ويكبر الأولاد بينما يبقى البيت على حاله ولا يكبر، وتزداد مطالب الأولاد فهم في مراحل تعليم مختلفة، من جامعي حتى ابتدائي، والدخل يكفي الشهر بالكاد ولا يزيد، بينما المعيشة تناسب وتكفي أسرة صغيرة في بداية أمرها، وإلَّا ما الذي يدفعه للسفر وفراق أبنائه بعد الأربعين؟

وهؤلاء شباب تركوا أوطانهم، ويعلمون أنهم في الغربة سيذوقون المرَّ و(يطفحون الكوتة)، لأنهم على يقين أن البقاء في الوطن لن يوفِّر لهم سكنًا كريمًا، وأن الوطن لن يشفع لهم عند الرغبة في الزواج، ولن يذهب معهم لوالد العروسة ويقول لهم زوِّجوه فإنه رجل يُعتمَد عليه وسوف يصون ابنتكم.

فالسفر في كثير من الأحيان يكون هو الطريق المأمول لإيجاد الحلول في توفير المال وزيادة الرزق، والردُّ هنا من المغترب على من ينكر عليه طموحه المادي، أو يشفق عليه من الغربة: «قالوا ايه رماك على المر؟ قلت اللي أمرّ منه».

الغربة تعلِّمه...

يكتسب المغترب في أرضه الجديدة الخبرات التي تساعده على الصمود والبقاء والتطور، فمنذ أن يضع قدمه هناك تبدأ موجات متتالية من التحدِّيات التي عليه أن يكون صلبًا في مواجهتها، مَرِنًا في التعاطي معها، ليثبت كفاءته وأحقِّيته باستكمال الطريق الذي بدأه.

فهو في عمله الجديد في الغربة لا شيء يشفع له ويضمن استمراره غير مجهوده وعطائه وإبداعه، فليست هذه وظيفة ميري، ولا المدير قريبًا له، ولا رفقاء العمل هم أصدقاؤه وإخوانه الذين يغطُّون غيابه

وتأخيره ويجبرون تقصيره، ولا مجال للعَشَم الذي يتجاهل الكثير من السلبيَّات ويتجاوزها، لأننا كلنا (أهل وحبايب).

فلا بد من تطوير الذات والبحث عن كل جديد في مجال عمله، بل وتعلُّم ما لم يكن يراه ضروريًّا مما يتصل بهذا العمل، والعمل على تحديث نفسه والاطِّلاع على كل ما يتصل بالعمل من النواحي كافة، وبخاصة الناحية الإلكترونية، فالعمل الكلاسيكي لم يعد يجدي وحده (في كل الأعمال حتى المهن اليدوية)، وإن لم تكن كذلك فهناك غيرك من مختلف الجنسيات سيحلُّ مكانك.

وتعطيك الغربة فرصة عظيمة في معرفة سوق العمل، فتكتسب رؤية جديدة واضحة في مجالات عملك، فتحدِّد ما يتوافق مع عملك، وما يتطلَّبه تخصصك، فترتفع في مجالك.

وهو في الحياة عمومًا، قد يكون المسافر ممَّن يُقال فيهم: «لا يسقون أنفسهم كوب ماء»، لأنَّه نشأ في أسرة تكرم ابنها بطريقة تجعله عالة على غيره دائمًا، فالأم هي من تفعل له كل شيء حتى كوب الماء الذي يشربه، والأخوات مفروض عليهن -ضمنيًّا- خدمته لأنه رَجُلُهم، والصغار كلهم في خدمته، فمن علامات الأدب أن يقوم الصغير على خدمة الكبير.

في الغربة انقطع عنه كل شيء، صار مسؤولًا عن كل شيء، يطبخ ويغسل ويكنس ويمسح، يشتري الخضروات ويعلم الفرق بين البقدونس والكزبرة، يعرف أسعارها يومًا بيوم، ويختار المكان الذي يبيع أرخص ليشتري ويوفِّر، يعلم أنواع مساحيق الغسيل ومزيلات البقع للأبيض والألوان، ويكوي ملابسه، ويعتني بحذائه، يعرف التفاصيل التي لم يكن يهتم بها، يعرف أسماء الطرق والشوارع وأرقام البيوت والشقق وتفاصيلها، ويدرك الاتجاهات وخرائط المدن، يعلم أذواق الناس ولهجاتهم وأطعمتهم وثقافاتهم، فالغربة مدرسة تعلِّم، وجامعة تخرِّج، ومؤسسة تمنح شهادات الخبرة في العمل والحياة.

الناس معادن

يظل المرء في بلاده محدود العلاقات -مهما كثرت-، يتعامل مع أنماط بشرية متشابهة إلى حدٍّ كبير، فالناس يتعاملون بانطباعاتهم السابقة عن الشخص، وفي الغالب داخل الوطن (الجميع يعرف الجميع)، ومَن لا يعرف يسأل، فيتفادون صاحب رد الفعل العنيف، أو اللسان الحاد، أو العُصبة القوية، ويتباسطون مع الطيبين، وقد يوجد من يتعامل بسوء مع من يظن دُنُوَّ قدرهم عنه، فالفرد هو من يفرض على الناس كيف تكون معادنهم عند التعامل معه.

في الغربة تظهر معادن الناس، حيث لا حسابات أخرى، فإمَّا أن يظهر معدنه الرديء فلا يعلم من العلاقات إلا المصلحة والمال، ولا يراعي إنسانية ولا أخوَّة ولا جنسية، أو يظهر أنَّه ابن أصول تسمو عنده العلاقات الإنسانية فوق المال، والأخوَّة فوق المصلحة، وابن بلده في الغربة هو أخوه، يرشده وينصحه، وينصره ويصلحه.

في الغربة يظهر البخيل، ويبدو من كرمه الكريم، تُميِّز الصبور طويل البال من الذي يغضب حتى من نفسه ويتعارك مع خياله، يعجبك الشخص الداعم والسند، من هو مفتاح لكل الأقفال، وحل لكل المعضلات، من ينشر التفاؤل ويهوِّن الغربة بابتسامته، وتجد نفسك نائية عن الأنذال، وتشمئزُّ من أصحاب النظرة التشاؤمية الذين إن رأوا على باب لك قفلًا وضعوا فوقه أقفالًا، وإن رأوك في مشكلة أقنعوك أنها القاصمة، أصحاب الوجوه العابسة وكأنها خرجت من تحت عجلات قطار، الذين كأنهم يحمِّلون كل من يتعامل معه -دون ذنب منه ودون أن يدري- مسؤولية غربته، هؤلاء الذين لا يضحكون في وجه (الرغيف السخن).

معرفة الناس كنوز

بعد فترة من التعامل مع الناس وتقييمهم، يستطيع المغترب اختيار من يصلح صديقًا للشدَّة قبل الفرج، وللضيق قبل السعة، والجميل أن هذه الصداقات تكون متنوعة، فيها من نفس البلد، فتجد فيهم من يشبهك ويعيش نفس ظروفك، فيعينك وتعينه، ويسليك وتسليه، ويعتمد كلٌّ منكما على الآخر في داخل الوطن وفي الغربة، وتنبني على هذه الصداقة صداقات متعدِّدة داخل الوطن، بين الأسرة والأسرة، والزوجتين والأولاد -إن وُجدوا-، وتتوحَّد الصداقات امتنانًا بالأخوَّة التي نشأت خارج حدود الوطن.

ومن هذه الصداقات ما يكون مع الأجانب عنك من غير وطنك (عربيًّا كان أو غير عربي)، وهؤلاء من يرونك من خارج الملعب، فيرونك أفضل من رؤيتك لنفسك، منهم تتعلم وتستفيد، يوجهونك للصواب بلا مواربة ولا مداراة ولا نفاق، وهم في أشد الحاجة إلى صداقتك مثلما تحتاج أنت إلى صداقتهم، وتكتشف فيهم وفاءً وإخلاصًا يضاهي ما فقدته في بلدك على الرغم من أنه لا يغني عنه.

كل أصل في الغربة (يبان)

والمقصود هنا أنَّ الغربة تظهر الأخلاق على حقيقتها وتجلي معدنها، فمن كانت أخلاقه أصيلة المعدن ثبتت ولمعت ولم تتغير، ويثبت صاحبها على ما يتبنَّاه منها، لأنها بالنسبة له من الثوابت لا تتغير، بينما البعض تبلو الغربة أخلاقه الزائفة، فقد كان يتصنع المروءة أو الحكمة أو الصدق أو الرحمة أو.....، وبعد أن أتى للغربة صهرت الأحداث والمواقف معدن أخلاقه، فإذا هي مجرد شوائب مصبوغة تزول مع ارتفاع درجة حرارة المواقف.

أمَّا السلوكيَّات:

فمن المواقف ما يجعل الفرد في صدام مع سلوكياته -أو بعضها-، أو في توافق وتصالح تام معها -أو بعضها-، فالتعامل مع أفراد جدد، والتعاطي مع مواقف جديدة تجعل الفرد يقيِّم سلوكه ويراجع تصرُّفاته إزاء ما اعتاده منها.

فالبعض يصرُّ على تصرفه المعتاد تجاه موقف معين أو شخص ما، لأن هذا -في رأيه- ما يجب أن يكون، وليست الغربة دافعًا للتنازل عن سلوك أو ردَّة فعل يرى أنه الأمثل تجاه ما وقع أيًّا كانت النتيجة.

بينما يغيِّر آخر سلوكًا كان متمسكًا به في وطنه؛ يتركه لأنه غير لائق ولا مناسب هنا، وقد يفعل شيئًا كان يراه -في وطنه- منقصة له، كمن كان يتعامل بكبر مع بعض الأمور وبنظرة من أعلى لبعض الأشخاص، فيصير الفرد أكثر تسامحًا وأكثر قبولًا للتعاون والمشاركة، وأكثر تعاطفًا مع غيره، حتى وإن لم يكونوا من بني جلدته، ويصير أكثر مرونة تجاه وجهات النظر والرؤى المختلفة في العمل والحياة، فمن كان انطوائيًّا في بلاده قد يصير اجتماعيًّا ورافضًا للعزلة، ومن كان يميل للراحة والكسل يصير نشيطًا متحركًا، ويقبل من الأشخاص وآرائهم مَنْ كان يترفع -في وطنه- عن النظر في وجوههم.

وهناك سلوكيات جديدة يتم اكتسابها من خلال العِشرة مع جنسيات أخرى وثقافات مختلفة، يراها وتعجبه فيتبناها ويفعلها، وهذا لا يعني بالضرورة أن جميع السلوكيات المكتسبة صحيحة، فقد يكون الشخص ضعيف النفس سريع الانبهار بكل غريب، فيستحسن ما لو كان في وطنه لعدَّه عيبًا وسوءًا.

نشاط العقل وزيادة الإبداع:

يعيش العقل من ناحية النشاط فترة استثنائية في الغربة، فمنذ أول لحظة من العزم على السفر يعلنها العقل صريحة مدوِّية: راح وقت النوم، انتهى عصر الكسل، وهو هنا بالطبع يتحدث عن نفسه، فالعقل الخامل الذي كان يرفض العمل والقيام بدوره المنوط به، ها هو الآن صار لا يكف عن العمل، فتنشط ذاكرته ولا ينتهي تفكيره، يفكِّر في كل شيء ويذهب إلى كل اتجاه، حتى يأتي وقت ويرجوه صاحبه بل ويتوسل إليه أن يرحم نفسه ويرحمه معها.

والعقل هنا أشبه بطفل انطلق إلى مكان جديد، لا يمل من الحركة والنشاط، لكنه -مع الأسف- يقضي أغلب وقته في تذكُّر ما كان في بيته القديم، فحينما يرى شيئًا يقارن بينه وبين ما كان في بيتهم: (كانت سيارتي أسرع.. كانت لعبتي أمتع.. كنت أملك ملابس أحسن منها.. أمِّي طعامها أفضل.. البيت القديم كان فيه رمل وطين ألعب بهما.. البيت القديم بجواره ملعب.. كان هناك أصحابي وجيراني وألعابي...) لا يكفُّ عن التذكُّر والمقارنة.

وكما يقولون: سهرٌ بسهر، وتفكيرٌ بتفكير، فليشغلْه صاحبه بما يفيد، تعلُّم أشياء جديدة، والحصول على دورات في مجال عمله، تعلُّم اللغات، متابعة الأخبار والنشاط على وسائل التواصل الاجتماعي، إنتاج ما يفيد الناس من خبراته (أعلم من كان إن لم يوافقه عقله على النوم سريعًا قام فقرأ وصلَّى وذاكر عقابًا لعقله على نشاطه وقت النوم، فإذا بعقله كأنه يرجوه أن ينام).

وبعد توجيه العقل لما هو مثمر ومفيد، فيصل إلى المزيد من الأفكار والتخطيط والابتكار، وينتج عن هذا نوع من الإبداع يظل ملازمًا للغريب حتى يعود، ثم يكون هذا الشيء المكتسب من الغربة بابًا لا يُغلَق بعد ذلك.

وكم صنعت الغربة من علماء وأدباء ومبدعين! يرجعون بفائدة كبيرة لوطنهم، فيستفيد الوطن من عقولهم ويستثمر إبداعاتهم.

الغربة تصنع الرجال:

من الطبيعي أن يكون المغترب وحده، بعيدًا عن أسرته وأهله، وبخاصة في بداية غربته، إلا في القليل من الحالات، وهذا يوجب على الفرد الاعتماد على نفسه في كل شيء؛ العمل، والمواعيد، والدراسة، والأعمال المنزلية، كل شيء سيفعله المغترب بنفسه ولن ينتظر أمًّا ولا أختًا ولا زوجة ولا صغارًا، وهنا تكمن الفرصة لاكتشاف نفسه واكتشاف إمكانيات جديدة داخل نفسه لم يكن يعلمها.

أول هذه المواهب التي يكتشفها أنه يمكنه الاعتماد على نفسه، وأن يعيش باستقلالية أكثر دون الحاجة إلى مساعدة من الآخرين، بل وقد يصير هو (الآخرين) بالنسبة لغيره، فلا يكتفي باستقلاليته، بل يدعم من حوله ويساعدهم.

ولا شك أن الاستقلالية والاعتماد على الذات -وإن بدأت في أشياء بسيطة- تكسِبان الفرد ثقة في النفس عظيمة، وتصميمًا على النجاح، ورغبة في المغامرة والانطلاق إلى أماكن كان يجهل قدراته فيها، وعند عودته ينجح في كثير من الأمور التي كان العائق فيها هو عدم استقلاليَّته.

الترويح عن النفس:

كل بلد فيها ما قد لا يكون في غيرها من أماكن التنزه والحدائق والمعالم التاريخية والأثرية، والمناشط الفنِّيَّة والثقافية، ومن الطبيعي ألَّا يكون العمل طوال الوقت، فهناك أيام للإجازة، وهناك أوقات بعد العودة من العمل، وهناك أصحاب ورفقاء في العمل أو المسكن يريدون الخروج للترفيه عن النفس والخروج من أجواء العمل وجدران المنازل، فيكون الخروج الذي تطيب به النفس مع رؤية ومعايشة الجديد الذي لن يراه في وطنه، وهذا الأمر مطلوب للراحة النفسية، وفصل العقل عن ضوضائه في العمل وغيره، فيعود نشيطًا ويمارس حياته بعيدًا عن الضغوط والتعقيدات.

ونكرِّر قول الإمام الشافعي في هذا:

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلا	وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَةٍ	وَعِلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

الفصل السادس

وفي الغربة مرار

شيء من مرارة الغربة:

الغربة هي الغياب والبعد والانقطاع، وتكفي هذه الكلمات للتعبير عن الغربة وأضرارها على النفوس، وسلبياتها التي تدوم حتى بعد إنهاء الفرد غربته، فكم من بيوت وأسر رسمت لهم الغربة حياتهم القادمة، فلم يستطيعوا الانفكاك من أسرها والبعد عن مرمى تأثيرها! وقد عبَّر مريد البرغوثي عن وصف للغربة يستوفي سلبياتها، حيث قال في كتابه: "رأيت رام الله.. رأيت الوطن السليب". الغربة كالموت، المرء يشعر أن الموت هو الشيء الوحيد الذي يحدث للآخرين... الغريب هو الشخص الذي يجدد إقامته، وهو الذي يملأ النماذج ويشتري الدمغات والطوابع، هو الذي عليه أن يقدَّم البراهين والإثباتات.

وفي السطور القادمة نعرض لبعض ما يصيب المغتربين وذويهم من أضرار تستمرُّ آثارها، وما يلصق بهم من سلبيات تنغص عليهم الحياة.

الغربة كربة

الغربةُ بناءٌ جدرانه الألم، ومِلاطه (أسمنته) المعاناة، وطلاؤه الاحتياج، وماؤه الدموع، وزينته المال، ولا أعجب من أن يرى البعضُ الغربةَ من بعيد، فلا يلفت نظرهم إلَّا زينتها، ويتجاهل كل حقيقتها، فألم الغربة حقيقة لا يمكن تجاهلها، ولا يمكن دفنها تحت نشوة الفرح الظاهر بفرصة السفر، وأقل الألم حين يواجه الشخص المغترب نفسه عن سبب سفره والدافع لغربته، نعم هي فرصة لا تعوَّض وباب مفتوح للفرج، لكن لماذا لا تكون هذه الفرصة وذلك الباب في الوطن؟ لماذا لا يمارس أحدنا حقه في النجاح ورؤية أثر ذلك على وجوه أحبابه لحظة بلحظة ويومًا بيوم؟ ما الذي جعل الوطن طاردًا للحالمين؟ وكيف أخوض طريقًا لمستقبلي بعيدًا عن الذين أبْنيه لأجلهم؟ وحين تعترضني عقبات الطريق لماذا أكون وحدي ولا أتكئ على مَن هذا دوره وذلك أخصُّ وقته؟ لماذا ندفع للفرصة ضريبة مضاعفة من أرواحنا وأنفسنا؟

الألم الذي يحدث حينما نعلم أن الوطن أقل من غيره بعيدًا عن الشعارات، الألم في لحظات الانقطاع عن الجذور ومفارقة التربة التي بها نشأنا، ألم التضحية بكل ما نحب لأجل شيء واحد حدَّدناه (مال، علم، حياة جديدة...)، حتَّى وإن ادَّعى الكثيرون غير ذلك، وكأننا خُيِّرنا بين أن نعيش منفيِّين نأكل ونشرب ونتنفَّس، وبين الموت البطيء في أوطاننا، فاخترنا ما ظاهره الحياة.

وإن نظرنا لأحوال المغتربين، علمنا ماذا تفقد الأمة بتغريب أبنائها وإيلامهم هذا الألم الهائل، ممَّا يعود بالسوء وأشد الألم على المجتمع كله.

فإن كان المغترب أبًا، فقد خسر المجتمع بغربته كثيرًا، خسارة لو يدركها القائمون على الأمر لعملوا جاهدين على تقليص هذا الأمر في أعداده وزمانه، فإنَّ للأب دورًا مهمًّا في غرس الفضائل والشمائل والصفات الحسنة عند الأبناء، حتى ينشأ هؤلاء الأبناء في صحة نفسية وجسدية واجتماعية وأخلاقية، وعندما تقدم الأسرة أبناء بهذه المواصفات فإنما هي تقدم وتسدي للمجتمع أهم واجبات الأسرة، فلولا الأفراد الأصحاء بدنًّيا وعقليًّا واجتماعيًّا ودينيًّا وأخلاقيًّا لما نهض المجتمع ولما أصبح مجتمعًا قويًّا منتجًا معتمدًا على سواعد أبنائه وقدراتهم، فماذا لو غاب الأب؟

الأب هو الثقة التي في نفوس أبنائه بوجوده، هو المدرسة التي تعلم وتربِّي وتخرِّج، وكما قالوا:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا   على ما كان عوَّده أبوه

وقد يترك المغترب أبناء، هم في أشد الحاجة إلى وجوده معهم، ورؤيته أمامهم ليلًا ونهارًا، فقد كانوا يشكون من غيابه في العمل طوال النهار، وها هم لن يروه عامًا كاملًا أو أعوامًا.

الأبناء لا تنقطع حاجتهم إلى الأب ولا تهدأ، فالكبير يريده صديقًا وفيًّا، وناصحًا أمينًا، ومجرِّبًا خبيرًا يجنِّبه عناء التجربة وويلات الأخطاء، وكم من المشكلات كان الأب حائط سدٍّ منيع أمامها!

والمراهق كان يحتاج إلى متابعته ورحمته وشدَّته، يكاد يقول: أريدك أبي قبل أن أغرق، فلا يد ستجذبني غير يدك، حتى لو كانت تلك اليد قاسية فإن فيها النجاة، لماذا ينادي كل زميل لي أباه ويلقاه عند عودته من العمل وأنا أُحرَم من هذا؟ أريد احتضانك يا أبي واستشعار وجودك بجانبي.

والصغيرة التي تمسي وتصبح على اسم أبيها، وذكر كلمة (بابا) عند كل موقف تستشعر فيه ضعفها، أو تفتقد فيه صوته وحبه وقبلاته وتدليله، الصغيرة التي قد تكون جامعيَّة أو حتَّى زوجة وأمًّا لكنَّها صغيرة جدًّا في شوقها لأبيها وحاجتها إليه، الصغيرة التي توشك أن تدخل في شاشة الجوَّال لتنعم بحضنه وتنال قبلات حقيقية، لا كتلك القبلات على الهوا عبر شاشة تلهب الشوق وتزيد ألم الفراق، تلك الفتاة وذلك الابن الصغير الذين لا يدرون كم يتقطَّع قلب الأب الغريب عند السؤال: متى نلقاك؟ متى نراك؟ متى أحضنك يا أبي وأقبِّلك؟ باختصار (امتى بقى يا بابا؟).

وقد يتأتَّى الألم من وليد أو رضيع يكبر يومًا بعد يوم بعيدًا عن أبيه، فلا يشمه ولا يلثمه، ولا يحضنه، ولا يلاعبه، كما يفعل كل أب بمولوده، غابت عنه أوَّل ابتسامة منه، وأوَّل كلمة بابا وماما (مع ما فيها من فرحة وضحك ومكايدات بين من نطق اسمه أولًا وبين الآخرين)، وأوَّل سن من أسنانه، وأوَّل عضة ومن نصيب من كانت، أوَّل (طقم خروج) يلبسه، أوَّل خطوة يخطوها، الكثير من الأوَّليَّات يراقبها كل أب،

فيطلب منهم أن يرسلوا صور كل شيء، وصوت بكائه عند خروجه للدنيا، وابتسامته وضحكه ومزاحه ودلاله وكلماته المقلوبة، وبلاويه التي يفعلها ببراءة وتشيب لها الرؤوس.

ويزداد الألم عند عودة الأب من غربته، فيجد وليده يستغربه، فيخاف منه في بادئ الأمر، يفعل الأب الكثير حتى يسترجع أبوَّته الغائبة عن نفس وليده، لكن الطفل لا يفهم لغة الهدايا والمال، فيحتاج إلى بعض الوقت ليفهم معنى الأب، ذلك المعنى الذي يفهمه كل طفل بطريقة طبيعية في وجود أبيه، وبعد أن يفهم الطفل ذلك الشعور وينعم الأب بنظرة الطفل لأبيه، يتولَّد ألم آخر، فقد انتهت أيام الإجازة والأب يتجهَّز للذهاب، يحتضن وليده ويقبِّله كثيرًا وكأنه يدخر للغد، مثل الصائم الذي يكثر من الطعام والشراب ظنًّا منه أن ذلك سيمنعه من شعور الجوع والعطش، وحين يبدأ الصيام يدرك أن لكل وقت ما يناسبه.

الألم لا يخص المغترب وحده، بل يصيب من حوله، وقد تكون آلامهم أشد وجروحهم أعمق، فقد يخلِّف المغترب أمًّا يجافي النومُ عينيها لفراق وليدها وفلذة كبدها وحبِّ حياتها بعد ذهاب زوجها، تقضي ليلها باكية تسأل نفسها: هل لي نصيب في رؤياه ثانية؟ أم يحين الأجل وأذهب عطشى لم أرتوِ برؤياه ولثمه واحتضانه، يجافي النوم عينيها وتخاصمها الراحة، ترى البيت الجميل الذي ساهمت في بنائه طوبة طوبة وغرفة غرفة، تراه ناقصًا الكثير حتى يعود إليه جماله وتطيب الإقامة فيه، فتلجأ إلى الله كل وقت، تدعوه حين ينام الناس أن يجمع الشمل قريبًا، وما من مناسبة إلا وكان فيها حاضرًا، تظهر صورته في شوقها ودموعها، وكلمة تبكي من حولها: "يا سلام لو الغالي موجود، الفرحة لا تكتمل إلا بوجوده، يأتي وآخذه في حضني قبل أن أموت...".

وقد يترك وراءه أخوات كان لهن السند، وهذا وقت السند والمعين، يقتلهن الشوق له، وتلهب ضلوعهن الحاجة إليه، ليست الحاجة المادِّيَّة، بل الحاجة إلى الرَّجُل الذي يقوِّي ظهورهن، الذي يقف حائط صدٍّ أمام ظلم زوج أو عقوق ولد، أو تهجُّم سفيه أو تقوُّل كاذبة، ولو كان الأخ موجودًا ما تجرَّأ أحد على شيء من هذا، ألم بنات في حاجة إلى أخيهم، حيث حضن أب فارق الحياة، ونظرة ودٍّ من عينيه، ولمسة حانية تقول لهم: ظهركم موجود وصُلب فلا تضعفن، أخوات على الرغم من قيامهن برعاية زوجته وأولاده، إلا أنهن في حاجة ماسَّة لرعايته هو، تسمع إحداهن كلمة عنه فتبكي، تخترق أغنية عن الغربة أذنيها فتبكي، ومشهد عن غريب في مسلسل يبكيها، في فرحة لها تذكره فتبكي، وفي أوقات الحزن تطلبه وتبكي، عند مائدة عليها ما يشتهيه أخوها تبكي، وكأنها الخنساء التي ذهب صخرُها، غير أن الخنساء كانت تنفِّس عن نفسها بالبكاء والشعر، بينما هي ليس لها إلّا البكاء فقط.

أما ألم الزوجة فلا يُقارَن، فهي أحوج ما تكون إلى زوجها وشريك حياتها، فحينما تزوَّجا عاهدت أهلها وعاهدته على أن تكون زوجة وأمًّا كما يحب، لكنها لم تكن على استعداد لقبول أن تكون أبًا في وقت من الأوقات، فهي لم تُخلَق لذلك، وجدت نفسها الأم والأب والمعلِّم والموجِّه والمراقب، وهي في داخلها تعلم أنها

لا تجيد كل ذلك، ولكنها الظروف التي فرضت ذلك، ومن أجل عَينَي زوجها وأولادها تتحمل ما لا يطيقه أحد.

هذا غير ألمها في بُعد السكن والراحة والمودة، وهي الغاية التي ذكرها الله حتى لا يهزأ أحد بألمها أو يقلل من ألمها (لتسكنوا إليها)، فقد صار الأمر مقتصرًا على مكالمات جافة، أغلبها بحكم الظروف للاطمئنان ومتابعة الأولاد والأمور المادية.

جعل الله الزواج للقرب والسكن والمودة، ولأننا بشر فمن الطبيعي أن نتألم للبعد والفراق، والمرأة التي خلقها الله بطبيعة أكثر عاطفية، وقلب أكثر تأثرًا من قلب الرجل، ووصَّى بها رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- «رفقا بالقوارير»، لذلك فالمرأة أشد شعورًا بالألم.

ولعلنا نقدِّر شيئًا من معاناتها حين نتذكَّر عمر الفاروق -رضي الله عنه- في القصة التي وردت بأكثر من وجه عندما حدَّد فترة غياب الجند عن أهلهم بأربعة أشهر، وهي أكثر مما تتحمَّله الزوجة بعيدًا عن زوجها، وكان رضي الله عنه قد سأل في ذلك.

فعن زيد بن أسلم عن عمر بن الخطاب، أنَّه خرج ليلة يحرس الناس فمرَّ بامرأة وهي في بيتها تقول:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه	وطال عليَّ ألَّا خليل ألاعبه
ألاعبه طورًا وطورًا كأنَّما	بدا قمرًا في ظلمة الليل حاجبُه
يُسَرُّ به من كان يلهو بقربه	لطيف الحشا لا يحتويه أقاربُه
فوالله لولا خشية الله وحده	لحرَّك من هذا السرير جوانبه
ولكنَّني أخشى رقيبًا موكَّلًا	بأنفاسنا لا يفتر الدهر كاتبُه
مخافة ربي والحياء يصدُّني	وإكرام بعلي أن تُنال مراكبه

فلما أصبح عمر أرسل إلى المرأة فسأل عنها فقيل هذه فلانة بنت فلان، وزوجها غازٍ في سبيل الله، فأرسل إليها امرأة فقال: «كوني معها حتى يأتي زوجها»، وكتب إلى زوجها فأقفله (أعاده) ثم ذهب عمر إلى حفصة ابنته فقال لها: "يا بنيَّة، كم تصبر المرأة عن زوجها؟"، فقالت له: "يا أبه يغفر الله لك، أمثلك يسأل مثلي عن هذا؟"، فقال لها: "إنَّه لولا أنَّه شيء أريد أن أنظر فيه للرعيَّة ما سألتك عن هذا"، قالت: "أربعة أشهر أو خمسة أشهر أو ستة أشهر"، فقال عمر: "يغزو الناس يسيرون شهرًا ذاهبين، ويكونون في غزوهم أربعة أشهر، ويقفلون شهرًا"، فوقَّت ذلك للناس في سنتهم في غزوهم.

الألم النفسي الذي يعانيه المغترب عند فقد حبيب لم يره، وكان يتمنى لقاءه ورؤياه، كان يتمنى أن يخبره بحبه، أو باعتذاره عن شيء حدث سابقًا، لكن الغربة منعت اللقاء والحضن والخبر.

الألم النفسي للمغترب وأهله عند كل مناسبة تمرُّ كان وجوده فيها ضرورة، وغيابه أفقدها معناها، وجعل شعورهم بها باهتًا.

أسرة مشوَّهة

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع، وهي قوامه ومكوِّنه الأول، تصلح الأسرة فينصلح المجتمع، كثير من الأسر تسير كما شاء الله لهم دون تخطيط أو ترتيب، وكثير من الأسر ترسم لنفسها خطًّا مستقيمًا في مستقبلها، وتعمل على ألَّا تحيد عنه، فمنذ البداية حدَّدوا طبيعة التعامل بين الزوجين، وكيفية مواجهة المشكلات حين تطرأ -فهم يعلمون أنهم ليسوا في الجنة-، ثم اتفقوا -إن رزقهم الله- على طريقة تربية الأبناء، وتفاهموا على كيفية التعامل مع الأقارب من الطرفين، والمساحة المسموح لهم بالتدخل فيها في حياتهم، وبالطبع لكلٍّ مساحته حسب مكانه من الزوجين والأسرة.

وتسير الأمور كما نعلم، وحتى الآن فالمعطيات والظروف تنتج أسرة سويَّة قوامها السكن والمودَّة، تزداد المسؤوليات مع الوقت، أو يزيد الطموح، يبحث الزوج الأب عن فرصة عمل بالخارج ليزيد رزقه، أو ابتعاث للخارج ليرتقي في درجات تعليمه -مثلما يحدث في بعض دول الخليج-، يسافر الزوج وحده، أو يستقدم أسرته بعد استقرار الحال، وتمرُّ الأيَّام، معلنة عن تغيير يحدث في بناء الأسرة نفسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا.

ولأن لكل شيء ثمنًا وكذلك الغربة، فالأسرة تساهم في دفع ذلك الثمن، تلك الأسرة التي يبعد عنها قائدها فتصير مثل سفينة غاب عنها ربَّانها وتركها في لحظاتها الحرجة، فمن البَدَهِيِّ أن تغرق، لذلك فإنَّ الأب العاقل والزوج الكيِّس الحصيف لا يترك أسرته في مهب الريح، ويذهب إلى غربة مجهولة، إلا إن لم يكن هناك بديل، وهو لا يفعل ذلك إلا بعد قراءة الواقع، وبنى على معطياته مستقبل أسرته، وأخذ بالأسباب، وأحسن الترتيب، ورسم لهم الطريق واضحة غير خافية، ثمَّ سلَّم أمره وأمرهم لله.

قال بعضهم: الآباء الصالحون عادة لا يفكِّرون في ترك بيوتهم وأسرهم إلى غربة يخفى عليهم مستقبلها إلَّا بسبب واضح مفهوم، وترتيب للقادم معلوم.

وإنَّنا حين نتكلَّم عن التشوُّه الأسري، نؤكِّد على حقيقة أنَّه ليس أمرًا عامًّا في جميع أسر المغتربين، لكنَّه موجود في قطاع كبير منها، وندقُّ ناقوس الخطر، لينتبه المغتربون، ويتدبَّر مَن يريد الغربة أمرَه، حتّى لا تقع أسرته في مرمى هذا البلاء الكبير، الذي يصيب الأسرة في مقتل، فتصير أمام الناس أسرة مثاليَّة محسودة، بينما هي في الواقع أسرة مشوَّهة، الزوجة غير الزوجة، والأبناء ليسوا هم نفس الأبناء.

فمن الممكن في غير السفر الطويل أن يحدث بُعدٌ مؤقَّت بين الزوج وزوجته لسبب من الأسباب، فيكون فرصة في مراجعة الأجواء الأسرية، وتجديد الشوق وتوثيق العلاقة الزوجية، هذا إن كان أصل العلاقة

مبنيًّا على الحبِّ والتفاهم والمودَّة والثقة.

ولكن الوضع يختلف في السفر البعيد، فقد أصبحت الزوجة هنا أبًا بعد غياب الأب، تلعب دورًا مزدوجًا لتعويض غيابه، وهي حينئذٍ الأمُّ المسؤولة عن إدارة شؤون أسرتها ونفسها من الألف للياء، فتتحوَّل بالتدريج عن دورها الأصلي وتخرج عن طبعها وحياتها، و من المسلَّم به أنَّ غياب الزوج لفترات طويلة عن بيته وأولاده يشتِّت الجميع، وبالأخص زوجته ألصق الناس به، ويبدأ التشوُّه الأسري يصيب الجميع ويقلب موازين الأسرة، كمسرح تغيَّرت ديكوراته فجأة، وحتَّى يتم توفير النفقات والميزانية يقوم الممثِّل بأكثر من دور فتتداخل الأدوار ويسقط الممثِّل، ولأن فريق العمل من الصغار قليلي الخبرة ينتظرون الملقِّن، والملقِّن ترك المسرح وذهب، والجمهور يرى مسرحًا وديكورات وممثلين، ويضحك على هذا المسخ الموجود أمامه، ويصفِّق للتخبُّط الواضح، ويصرخ معجبًا بسقوط الممثلين واحدًا تلو الآخر، ظنًّا منه أن هذا تجويد من الممثلين وخروج عن النص و(إفِّيهات) خارج إطار السيناريو.

تبدأ الزوجة في اعتياد الوحدة، وإيذاء مشاعرها، تجرِّب الاستغناء عن رفيق حياتها، قد تضعف العلاقة بينهما، تضيق نفسها ويعلو صوتها، وتجد العصبيَّة الشديدة والانفعال الزائد طريقهما إليها بسبب ما تتعرَّض له من ضغوط.

وقد تتضخَّم ذاتها وتعتقد أنها من تصرِّف الأمور ولا تنتظر سندًا، وقد تضطر للسماح لإخوانها أو أعمام أبنائها بالدخول لحياتهم، وقد يكون دخولهم على الرغم منها، ومرفوضًا تمام الرفض منها، وقد يكون لهم قرار ملزِم لها، فالأولاد يحتاجون إلى حنجرة رجل يقنع ويوجه ويقوِّم، على الرغم من تحفُّظها هي شخصيًّا على طريقة تربيتهم لأبنائهم، وهي تريد أولادها كما تتمنَّى هي ومثلما كانت تخطِّط.

بعض الأمهات يسيطر عليهن الخوف، الخوف على نفسها، ومن الطمع فيها، ومن إعلان مشاعرها فتفسَّر خطأً، وبخاصة في ظل وجود وسائل التواصل الاجتماعي التي تفتح أبوابًا لرفض الواقع، والنظر بانبهار لنماذج مثالية على الصفحات والمواقع -والأولى بها أن تكون في الستر بين الزوجين-، فتقرأ المسكينة كلمات على الملأ -وكان الأوْلى لمن يكتب ذلك الكلام أن يقوله في الخلوة والستر- تعلن فيه زوجة حبَّها لزوجها وتقديرها لوجوده في حياتها، فقد رزقها الله حبَّه، وهو السند والراحة والعشق، وتنبهر المسكينة بكلام موجَّه من زوج لزوجته يبيِّن كم هما قريبان متحابَّان يضحي كلٌّ منهما من أجل الآخر، وأنَّه يسجد لله شكرًا على أن ملك حبها قلبه، ويعاهدها أمام الناس -بأشكال وألوان من القلوب- على السير معًا.

والجميع يعلم أن كثيرًا من هذه الكلمات زائفة، أو أقل كثيرًا من الواقع، لكنَّها كلمات تشبه (النيش) وبعض أغراض شقة الزواج، موجودة فقط لأن الجميع يجعلونها في الجهاز، "وعروستنا ليست أقل من بنت فلان".

يكتب أحدهم وتكتب إحداهن كلمات مكانها الطبيعي البيوت وغرف النوم، ولا يلقون بالًا لما يكتبون، لكنها كلمات قد تزعج كثيرًا تلك الزوجة التي غاب زوجها، لأنَّها تنكأ الجرح وتوقظ الألم، فالحياة

ينقصها الكثير في غياب الزوج، وهنا تنتظر بعض الذئاب التي ترتدي أثواب الفضيلة والدعم والنصح، تنتظر على حواف المواقع والصفحات، وتأخذ من بين سطور المنشورات ما تفتح به بابًا للكلام مع المسكينة وأنه يقدِّر حالتها ويشفق عليها، والقوية من تغلق هذه الأبواب في وجوه شياطين تفتحها، وهناك الضعيفة التي تنساق حتى تكره حياتها مع ذلك الذي لا يقدِّر الجوهرة التي في يده، والنتيجة زوجة مشوَّهة المشاعر.

وتخاف الزوجة الأمُّ على أبنائها، فهم يكبرون وتتغيَّر طبائعهم، وهي في الأخير مجرد أمٍّ وليست أكثر من ذلك، والخوف من أن يجد زوجها شريكًا آخر في غربته، فهي ترى نفسها أكثر منه قدرة على التحمُّل، ويتسلَّل الشك إلى نفسها، على الأقل في مقدار حبِّه وتقديره لها، ويطرح السؤال نفسه عليها: هل كان يستطيع الاغتراب والبعد كل هذه الفترة لو كنتِ تمثلين له شيئًا؟

تتمنَّى لو يقرر انتهاء غربتهم، لكنَّ الخوف من مطالبة الزوج بالاكتفاء بتلك الفترة العصيبة من الغربة فتُتَّهم بأنها أنانيَّة لا تراعي مصلحته ومستقبل الأولاد، حوار وضوضاء يبعثران داخلها ويؤرقان قلبها ويشتِّتان عقلها، تصير مع الوقت كائنًا آخر غير الزوجة والأم المعروفة، وتحتاج وقتًا طويلًا ومعاملة خاصة بعد نهاية الأزمة حتى تعود لطبيعتها.

غياب الزوج عن بيته وأولاده لفترات طويلة تنتج تلك التشوهات التي تفتح أبوابًا لمفاسد أكبر من ضيق الحال، فيزداد البعد ويكبر الفتور في العلاقة، وتتفكَّك روابط المودَّة والسكن، وبعض الزوجات ينتابهن شعور قاسٍ بأن زوجها العائد من الغربة مجرد ضيف غريب، وجوده يضيق عليهم ويغيِّر شكل الحياة التي اعتادوها، لكن لا بأس، فهو يوشك أن يذهب، هكذا تعودن منذ زمن.

أما الأبناء، فالضريبة تقتطع في الأساس منهم، من نفسياتهم وأرواحهم وتربيتهم، من دفء الأسرة ووجود السند والسكن والقدوة والرقيب، يدفعون الضريبة مضاعفة في كل يوم سمعوا نداء أقرانهم لآبائهم بكلمات: «أبي.. بابا» ولم يستطيعوا قولها لأن الأب بعيد، دفعوها حين حزنوا وكتموا أحزانهم، لأن الحضن الذي يؤويهم غير موجود، دفعوها في المدرسة عندما طلبوا الأب لحضور اجتماع أولياء الأمور، حين طلبوا حضور والده عند تسلُّمه لجائزة التفوق، دفعوها في كل موقف غاب عنه الأب ولم يستطع أحد ملء مكانه، ليس تقصيرًا من الأقارب، لكن لأن المكان واسع ولا أحد غير الأب يملؤه.

من القناعات التي رأيناها وعايشناها في القرية، أنَّ للغربة ضريبة ضخمة يدفعها الأبناء، فقد كان الأساتذة والشيوخ الذين يفتح الله عليهم، ويرزقهم بإدراج أسمائهم للإعارة خارج البلاد، فيخرج الواحد منهم ويغترب، ومع مرور الوقت كان يحدث ما ينغِّص عليه حياته، ويقلب المنحة والإعارة وجمع المال إلى بلاء وهمٍّ ومحنة لا تنتهي، ولأن أهل الريف طيِّبون كانوا يفسرون الأمر على أنه عين وحسد، وناس ليس وراءها غير النظر للرجل في غربته، وما يرسله لأبنائه وما يدَّخره، مع أن السفر كله قد ينتهي ببناء بيت والعودة للوظيفة، و(يا مولاي كما خلقتني).

عند سفر الأب يغرس في أولاده أول مبرِّرات البعد عنهم، ويبيِّن أن كل ذلك من أجلهم (وهو صادق في قوله)، لكنهم من الآن ينتظرون ما يصنعه الأب لهم، والمعيشة المريحة التي وعدهم، فيبنون في خيالهم حياة قد لا تتحقَّق، الأبناء فقدوا السند، فقدوا الدعامة الأساسية في نموهم وتطورهم، غياب الأب عنهم يمثِّل أمرًا في غاية الصعوبة، وأذىً نفسيًّا لا تزول آثاره.

يسافر الأب وكلما حقَّق شيئًا مما يأملون يتطلَّعون لتحقيق غيره، وهكذا مع مرور الوقت تشوَّهت نظرتهم لأبيهم وتحوَّلت من رؤيته أبًا حبيبًا يفتقدون وجوده إلى جوارهم، ويتمنَّون اللحظة التي يعلن فيها اكتفاءه من الغربة، تحوَّلت نظرتهم له فيرونه الأب الذي اعتادوا غيابه، ويتقبَّلون ضيافته كل عام شهرًا، ويتحملون وجوده لأنها أيام وسيسافر بعدها، يرونه المموِّل الذي لا بد له أن يحافظ على مصادر تمويله من أجلهم، وتتحول رغبتهم في عودته إلى رغبة في بقائه لإنجاز الذي لم يتحقق، فقد اعتادوا غيابه وتسير الحياة بدونه، ومع الوقت يعدُّون ما يفعله هو دين عليه لهم نظير غيابه، وكم من الصدمات التي تلقَّاها آباء أعلنوا رغبتهم في العودة، فلم يجد الترحيب، بل وجد رغبة في بقائه بالخارج بعيدًا عنهم، فهم بالفعل يتحمَّلون غيابه، -أو قُل: لا يأبهون لغيابه- لكنهم لا يتحملون تغير أوضاعهم المادية، والحرية التي يظنون أنهم اقتنصوها في غيابه.

مع غياب الأب قد يهمل الأولاد دراستهم، ولعل كثرة ما يحكى حول هذا الموضوع يوضِّح حقيقة وجوده، فمئات وآلاف القصص التي وقعت، وإن اختلفت بعض الأحداث وتغيَّرت بعض التفاصيل، مثل حكاية الشاب الذي ترك دراسته أو أهملها، واجتمع برفقة السوء، الذين يلتصقون به مثل الطفيليات، فتمتص غذاءه وتضعفه ثم توشك أن تميته، فهو من ينفق عليهم، وعنده السكن الذي يسمح لهم بفعل ما يريدون، ووفَّر له والده السيارة التي تيسِّر له دراسته وقضاء مصالح الأسرة، فتستغلُّه (الشلَّة) وتستخدم إمكاناته المتاحة في سبيل فسادهم وعربدتهم، والسير في طريق فشله، وهو بالطبع سيكون أول الفاسدين وعلى رأس الفاشلين.

ومع عدم وجود الرقيب القوي الحصيف الذي يحسن تقدير الأمور، ويستطيع أن يمنع ذلك السقوط الكبير، يصير الابن مسخًا نفسيًّا مشوَّهًا، فهو أمام والديه ذلك النموذج الذي يريدون، يظهر لهم ما يرضيهم عنه، ويجعل ثقتهم فيه تصل للسماء، وهو أمامهم الطالب المتفوِّق في صدارة الترتيب بين زملائه، وهو المصلِّي الطيِّب، الذي لا يعرف طريقًا غير طريق البيت والجامعة والمسجد، وبعض الأصدقاء المتفوِّقين الأتقياء أولاد الأصول والبيوت الطيِّبة، لأنَّه يخشى إن ظهر منه غير ذلك أن تُسحب منه كل امتيازات غربة والده، وهو في واقعه ذلك المشروع التدميري الكبير، الذي يمكن أن يطيح بجهد وغربة والده، ويضيع سنوات غربته القاسية، وللأسف فكثير من الأهل يخدِّرون أنفسهم بمظاهر أبنائهم ليكملوا غربتهم التي صارت شهوة لا يستطيعون مقاومتها.

وكم قرأنا وسمعنا ورأينا قصصًا لأبناء عاشوا مراحل من حياتهم في عدم وجود الأب، فتاة تغرَّب والدها ليجلب لها القمر ويصنع لها المستقبل، ويوفر لها كل ما تريد، ينحني ظهره في غربته، وتزيده هي انحناء

من نوع آخر، ذلك الانحناء الذليل نتيجة أفعالها وخروجها عن النص المكتوب لها، والخط المرسوم من الذي يذوق الأمرَّين لأجلها، فقد وضعت قدمها في أول طريق الضياع بعيد عن رقابة الأب ورعايته، ولم يعد يعنيها أن تكون طبيبة أو مهندسة أو معيدة بكليتها كما كانوا يخططون، فهي تدرس وتخرج وتتمتع بحياتها وهذا هو المهم.

فطموح الأبناء اضمحلَّ لعدم وجود من يسقيه، ويقرأ عليه الآيات والأذكار كل صباح ومساء ليطرح الله فيه البركة، فيُخرج ثماره يانعة تسرُّ الناظرين، فبغياب الأب صار الأولاد يختزلون الطموح فيما يحققه الأب وما يرسله لهم، كأفراخ تنتظر في أعشاشها، تفتح أفواهها في انتظار من يأتي لها بالطعام، ولكن هناك فارقًا كبيرًا، فالأفراخ تكبر مع الوقت بينما هؤلاء يصغرون.

في جانب كبير من أسر المغتربين، تتجلَّى الآثار النفسية لعدم وجود الأب الراعي لسلوكيات أبنائه، الأب صاحب الحقِّ الأصيل في المراقبة والمحاسبة والتقويم –على الرغم من وجود من يحاول ممارسة ذلك الحق–، فعدم وجوده تتجلَّى آثاره النفسية على شكل تشوُّهات تصيبهم وتظهِرهم في صورة غير ما كان يرسم ويتمنَّى، هؤلاء الأبناء الذين لا يستطيعون السير في الطريق المرسوم، ولا العودة للطريق القديم المألوف، فهم مسحوبون للسير في الطريق الثالث بوسعه الظاهري وزينته البادية والحرية الموهومة للسائرين فيه، وهو ما يشيرون إليه من بعيد بالثقافة الثالثة.

بعض الآباء ينظرون للأمور نظرة سطحية، فحينما يريد أحدهم تعويض غيابه عن أبنائه، يمنحهم الكثير من الأموال ويأتي لهم بكل ما يطلبون، وأحيانًا ما لا يطلبون، فهذا في نظرته القاصرة بديل غربته، والثمن الذي يسكِت به أبناءه حتى لا يطالبوا بوجوده جوارهم، هنا يبدأ الأبناء في اعتياد الابتزاز للعيش برفاهية اعتادوها، فلا يعتادون تحمُّل المسؤولية، ولا يتحمَّلون التربية على خشونة العيش كغيرهم، ومن ثمَّ فهم ينكشفون ويظهر ضعفهم عند أقرب اختبار، حين تأتي عليهم أيام صعبة تحتاج إلى الصمود والجلد ووقفة الرجال.

وبعد الرجوع غربة

الغربة هي ذلك الحادث الذي تطول أيَّامه أو تقصر، ولكنَّ أثره يدوم، وتظل نتائجه بادية واضحة على الرغم من انتهائه، فتختلف كثير من الأحوال بعد الغربة عنها قبل الغربة، فحينما سافر المغترب ترك أرضًا وأحبابًا وأُنسًا وأصدقاء ومقرَّبين، ومرَّت الأيَّام تلو الأيَّام، وكانت مظاهر ذلك التغيير موجودة عند رجوعه لقضاء إجازته، فمكانه لم يعد له، وبدأ يشعر بأنه مجرد ضيف يوشك أن يذهب.

في هذه الزيارات كان الغريب يلاحِظ دوام شعوره بالغربة، فليست كل الأمور كما كانت، وليست كل الأحوال كما تخيَّل قبل رجوعه للإجازة، نعم الفرحة بعودته بادية على الوجوه، وفي طريقة التعامل والترحيب، لكنه تعامُل يصلح للضيوف لا لأصحاب المكان، غابت عنه أشياء وأحداث ومفاهيم وتطوُّرات، لأنهم لم يريدوا شغل باله بها، لأنَّه مغترب وكفى بغربته عبئًا وشغلًا.

قبل سفره كانت مكالمة كافية لتجهيز لقاءاته بأصدقائه، تغيَّرت الأحوال، فبعضهم قد يأتي للسلام عليه، لكنَّ وقته لن يسمح بالتجمُّع والخروج، وبعضهم صارت له صحبة هي الأولى بذاك الوقت، وبعضهم لم يعد عنده الوقت لمثل هذه التجمعات، ولا يملك رفاهية التنزُّه وتكاليف الخروج، ومع مرور الوقت يجد المسكين العائد من غربته حديثًا، يجد نفسه غريبًا مرة أخرى، لكنها غربة داخل الوطن!

بالطبع تتوالى عليه زيارات الأقارب والمعارف، كثير منها من باب الواجب، فعودة المغترب من المناسبات التي يتزاور فيها الناس، ليحمدوا له الله على سلامة رجوعه، ويقدموا التهاني لذويه على عودته، لكن وسط هذه الزيارات يجد الغريب العائد لوطنه من جاءه لاقتناص فرصة، وتحقيق المنفعة، فهؤلاء -وإن تظاهروا بالصلة عملًا بالواجب- ينظرون للعائد على أنه المستثمر الفرصة، وصاحب رأس المال الذي لا يعرف كيف يصرفه في بلد جديد، فلا يدري متطلَّبات السوق، ولا الأعمال التي تجلب ربحًا عاليًا مضمونًا، أو هو الذي غرف من الغربة حتَّى ملَّ، ويخشون عليه من ضياع شقاء العمر فيما لا يفيد، أو تركه ينفد مع الأيام دون استثمار.

يجد الرجل نفسه وقد عامله البعض على أنه فرصة لا بد أن تُقتنَص، وأنه مجرد كيس من المال لا بد أن يُستفاد منه، ولا يدرون أن المسكين قد رجع بغربته وقليل من المال قد يكفي ليكون مستورًا بين العباد.

قد يكون بعضهم حَسَن النية، وقد يراه البعض من باب (أفد واستفد)، قد يصدُق بعضهم وقد يمارس بعضهم تجاهه سياسة الاحتيال والخداع، وقد يستغفله البعض، وقد لا يمكِّن هو أحدًا من فتح هذا الأمر معه، تبقى المحصِّلة في النهاية هي ذلك الألم الناتج عن تغيُّر نظرة البعض إليه، وشعوره بالغربة، فلم يعد الناس كما كانوا، ولم تبقَ العلاقات كما هي، ولم يعد الدفء القديم موجودًا كما كان.

الفصل السابع

حكايات الغريب

الغربة مرحلة حاسمة في حياة المغترب، هناك من يخرج منها إلى حال أفضل ومستقبل يفتح ذراعيه بالخير، ومن المغتربين من تكون نهاية غربته الصدمة والضياع، وكثير تأتي نتيجة غربته لا عليه ولا له، إلَّا من حدوث بعض التغيُّر في حياته، مثل بيت أو سيارة أو تكلفة الزواج لبعض ولده، ثم تعود الأمور لما كانت عليه قبل الغربة.

ومن خلال حكايات وقصص المغتربين، ونتائج الغربة لكلٍّ منهم، وتعامل من حوله في أثناء غربته وبعدها، يتضح لنا أنَّ الغربة فيها نوع آخر من الرزق؛ هو رزق البشر، فقد يكون المغترب واسع الرزق في أخ أو أمٍّ أو أصدقاء أو أشخاص يعينونه على غربته، ويحفظونه في غيبته، ويحافظون على ماله كما لو كان موجودًا.

وعلى الجانب الآخر فقد يكون الرزق في البشر ضيقًا مقبوضًا، فتجد الأخ والأهل والمعارف يحسدون المغترب ويستكثرون عليه رزقه، فيحلبونه حتى آخر قطرة، ثم إذا ما انتهت غربته أنكروه، وعاملوه معاملة الغريب غير المرغوب فيه، في البداية يطمئنونه ليسافر، ثم حين يرسل لهم ما يجنيه ثمنًا لويلات الغربة يبنون لأنفسهم، ويصنعون غدهم بماله، ويحسنون له فترة إجازته كضيف يحمل الهدايا، ثم تكون النهاية بالجحود والنكران، وقد تكون بالاستيلاء على كل شقاء عمره وطرده ليعيش الصدمة القاتلة.

الناس رزق والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، لكن المغترب جزء من مصيره، فيجب أن يحتاط لنفسه، وألَّا ينسى دوره حتى لو معنويًّا وسط أحبابه، فلا يكون مجرد مموِّل يرسل المال، يعيش في غربته بعيدًا عنهم، فلا يسأل ولا يتواصل ولا يحمل الهمَّ معهم، ولا يتابع أحوالهم، فإن لم يجد هو في نفسه غير جالب للمال فماذا يريد من غيره أن يراه؟!

أمر آخر: هل صحيح أن في الغربة يفقد الفرد نصيبه من حب الناس حوله؟ على أساس المبدأ القائل: البعيد عن العين بعيد عن القلب؟ ومن خلال قصص الغربة والمغتربين بعد عودتهم، يتبيَّن نسبيَّة هذا الأمر.

إنَّ من أكثر ما في الغربة من مرارة أنَّها قد تضع الفرد أمام حجمه الحقيقي عند أقرب الناس إليه، وتوضِّح له كيف ينظرون له، وقد تصدمه بعكس ما يعتقده، أو باختلافه عنه بنسبة كبيرة، فيتيقَّن أنَّه صار خارج حسابات البعض، وعلى الهامش عند آخرين، أو أنَّه قد صار مجرد شخص كان موجودًا في حياة الآخرين، كما أنَّه يتعجب من عظم مكانته عند من كان يرى نفسه صغيرًا عندهم، وهذا ما يدعوه إلى

إعادة النظر والتقييم، وترتيب مكانة الأشخاص، لأنَّ ترتيبه قد تغيَّرت، ومكانته اختلفت، ووصفه في الواقع قد تبدَّل.

وحين تسمع بعض الحكايات من واقع الغرباء، في غربتهم أو بعد عودتهم، ولعلنا سمعنا أو عايشنا الكثير منها، وتعجَّبنا حين علمناها، من انحدار العلاقات الإنسانية وخروجها عن حقيقتها الأصيلة إلى واقع قاسٍ مرير، صار فيه أهم ما في هذه العلاقات إعلانها للناس في واقع افتراضيٍّ مريض، على وسائل التواصل الاجتماعي، فنقرأ ونشاهد المنشورات التي تتحدَّث عن السند والحياة ومعنى الأبوة وقيمة الأخ والأخت والعائلة وإعلانات الحب والعشق بين المتزوِّجين والمخطوبين، البعض من هذا حقيقي وأكثره تمثيل وتزييف.

المموِّل

«أبو زياد» شاب تخرَّج في إحدى كليات جامعة القاهرة، التحق بوظيفة بعد قضاء الخدمة الإلزامية بالجيش، وبعد عامين من البحث عن العمل، والتنقُّل من مكان لمكان لكسب القوت، تزوَّج ورزقه الله بالأولاد، كان يحاول أن يوفِّر لزوجته وأولاده الحياة الكريمة ولو على حساب نفسه وراحته، مع مرور الوقت وانتقال أبنائه إلى مراحل عمرية أكبر، حيث المدارس بمراحلها ومصروفاتها، وكسوة يتباهون بها أمام أقرانهم، ومستقبل يرجون من الوالد أن يبدأ في تأمينه لهم من الآن.

لم يعد الراتب يكفي، فالتحق بعمل إضافي يأخذ ما تبقَّى من يومه، وكما يقولون: "اللي جاي على قد اللي رايح"، شارَك في مشروع صغير مع زميل له، لم يتغير الحال، لم يجد بدًّا من البحث عن فرصة عمل بالخارج ليوفِّر لأبنائه ما يرجو، وليحقق لهم ما يطمحون، واتفق مع زوجته وأولاده على أنه سيغيب عامين فقط، ثم يعود لهم وقد تحسَّنت الأحوال.

سافر واغترَب وواصَل الليل بالنهار، رجع بعد عام في إجازته السنويَّة محمَّلًا بما طلبوا، وهكذا كان يفعل كل إجازة، فقد تحوَّل العامان المتفق عليهما إلى أعوام كثيرة، وصار نمط الحياة روتينيًّا: يستضيفونه في الإجازة ويرسل لهم الأموال ويجلب الهدايا.

تعرَّض لوعكة صحية شديدة في الغربة، جعلته يفكِّر جديًّا في أن يعود لبلده وأولاده، وبارك الله فيما رزق، والحمد لله، فسنوات الغربة وفَّرت لهم الكثير، يعود لعمله ويفتح مشروعًا صغيرًا بجوار العمل، وتسير الحياة وسط أسرته التي تحتاج إليه.

اتصل على أولاده يعتذر عن عدم اتصاله في الأيام الماضية، وأخبرهم بوعكته الصحيَّة، حيث أصيب بجلطة قلبية، ولولا لطف الله وقدوم أحد الزملاء للاطمئنان عليه، فنقله للمستشفى والحمد لله مرَّت الأزمة على خير، قال لهم: "لولا لطف الله ثم هذا الصديق لمِتُّ وحيدًا في غرفتي ولم يدرِ بي أحد"، ثم يطمئنهم أنه بخير والحمد لله ولا داعي للقلق...

ثم أخبرهم بقراره بإنهاء تعاقده والعودة ليكون بينهم، وكانت الصدمة التي لم يكن يتخيل حدوثها، يقول: "للأسف لم يلقَ قرار عودتي أي تأييد أو ترحيب من أسرتي وإخوتي وأخوال أولادي، فبدأت الزوجة والأولاد بسرد الالتزامات والمتطلَّبات، فأحدهم ما يزال في تعليمه، والآخر ينقصه تشطيب شقته للزواج، والبنت الكبرى لها قائمة طويلة لتتجهز للزواج، و........إلخ، وهناك من أثنى على الغربة بأنَّها فرصة ينتظرها الكثيرون، وآخرون بدؤوا بضرب الأمثلة عن أناس سافروا لسنين عدَّة وحقَّقوا الكثير.

ويكمل أبو زياد حديثه باكيًا: «شعرتُ أنَّني بلا قيمة، فقد صرت بمرور الأيَّام مجرد مموِّل، يجب عليه أن يستمر في التمويل مهما كانت ظروفه، تيقَّنت من كذب ما كان يُكتَب على صفحات الفيس، وأتباهى به أمام زملاء العمل والأصدقاء، كانوا يكتبون: اشتقنا يا أبي.. متى تعود وتبقى بيننا؟ الأب هو السند وليس أحد غيره...إلخ، مع مجموعة من الصور التي تجمعنا، ووضع أصناف وألوان من القلوب.. كان كل ذلك كذبًا».

الآن أصبحتُ على يقين أنَّه لا أحد يشعر بالمغترب إلَّا هو، وعليه عدلت عن قرار العودة؛ ليس من باب تنفيذ طلبهم، ولكن لأنني زهدت في الرجوع، فأنا مصدوم من حقيقة عدم وجودي في حياتهم.
هذا نوع من الصدمات التي تخلِّفها الغربة، فعلى الرغم من أن اغتراب الزوج والأب عند بعض الأسر كان حلًّا لمشكلات مالية كانوا يعانونها، أو أنَّه حسَّن من الوضع المعيشي والاقتصادي للأسرة، أو وفَّر لهم تجارب مهنيَّة وشخصيَّة جيِّدة، لكنَّ ذلك لم يخلُ من متاعب نفسيَّة أو اجتماعيَّة أو صحِّيَّة عاشوها، أو ما يزالون يعانونها، وليس الأمر متوقِّفًا على المغترب نفسه، فهناك العديد من المتاعب التي تحدث للزوجة والأبناء في غياب ربِّ الأسرة، وقد تكون قيمة وجوده في توقيت هذا الوجود، كما أنه من الوارد حدوث تلك الفجوة الكبيرة بين الأب وأبنائه الذين يرونه مرة كل عام أو عامين، فجميع هذه الآثار هي ثمن للغربة التي يراها البعض كنزًا.

حياتي بلا أب!

الطالبة الجامعية سهام (21 عامًا) تقول: "قضيت طفولتي دون أب، كانت الأمور صعبة وأنا أرى زميلاتي وقريباتي في مثل سنِّي، تنادي كلُّ واحدة أباها، وتستند إليه عند أصغر مشكلة تحدث، أو كما يقولون: «لو أن أحدًا داس لها على طرف»، كنت أبكي وأطلب حضوره وأتمنى أن أغوص في حضنه كما أرى زميلاتي يفعلن مع آبائهن.

ذكريات طفولتي كلها تخلو من الأب، أذكر أمي، وأذكر وجود أخوالي في حياتي، كان والدي يعود من غربته كل عام تقريبًا، ويمكث بيننا شهرًا، لا نكاد نأنس بوجوده، ونتعوَّد عليه، لذلك فخلال شهر زيارته هذا كنت أشعر دومًا أن هناك غريبًا في بيتنا، وكما يقولون: لم أكن في البيت على راحتي، هو ضيف وسيمضي بعد أيَّام، وأضطر لالتزام الهدوء التام والتعامل بحذر لسبب بسيط؛ هو أنني لم أعرف أبي ولم تكن بيننا صلة طوال هذه الفترة".

وتتابع: "لم أستطع أن أنسى نومي باكية شوقًا إليه، لم أنسَ رغبتي في أن أناديه، وأن يأتي ليحضر احتفال المدرسة وأرفع رأسي في وجوده، لم أنسَ نظرات الفخر والعزة في أعين زميلاتي عند حضور الآباء لاصطحابهن للبيت، ولا أستطيع أن أنسى نظرات الشفقة من أعين المعلِّمات تجاهي، أردت أن أكون مثل غيري لكنه حرمني من ذلك، ظل الوضع كذلك إلى أن عاد أبي وأقام بيننا، لكني ما زلت إلى الآن أشعر بشرخ في علاقتي به، وأن هناك حلقة مفقودة بيني وبينه".

وتحكي أم عبد الرحمن، زوجة أحد المغتربين منذ اثنتي عشرة سنة، تقول: "كانت الظروف صعبة، والأسرة تكبر، وتكبر معها متطلباتها، اضطر زوجي إلى الاستدانة من بعض المقربين منه، وزادت الديون عن قدرته على السداد، اضطرَّ أن يبحث عن فرصة للسفر، يستطيع من خلالها سداد الديون وتوفير احتياجاتنا. كان الأولاد ما يزالون صغارًا، يحبون والدهم الذي يجلب لهم السعادة بحبِّه وحنانه وحسن صحبته لهم، وكانوا هم أصعب ما في الأمر، صعوبة ذلك عليه، وعدم تقبلهم فكرة أن يبتعد عنهم، لكنَّه سافر واغترب، كانوا يتلهَّفون لمكالمته، ويفرحون بهداياه، ويطلبون منه العودة سريعًا.

الحمد لله تحسَّنت الأوضاع كثيرًا، وقمنا بتسديد الديون، وشرعنا في تجهيز البيت وشراء ما يحتاج إليه وما يطلبه الأولاد".

ثمن الغربة باهظ

وتستدرك أم عبد الرحمن: «لكنَّ لكل شيء ثمنًا، والغربة ثمنها باهظ، فينبغي على الزوجة أن تصبح الأمَّ والأب بذات الوقت، ومن الطبيعي أن تعاني حتى تقوم بالدورين، والحقيقة أنها لا يمكنها أن تسدَّ مكان زوجها، فهؤلاء الأبناء يحتاجون إلى أب حازم إلى جانب الأمِّ بعاطفتها وحنانها، حتى يمكنهم الإرشاد والتوجيه والضبط أحيانًا.

فعلى سبيل المثال: إنَّ وجود الأب إلى جانب أبنائه يحفِّزهم على المستوى التعليمي المتقدم، لا أن يكتفوا فقط بالنجاح، ويشعرون أنهم بهذا أدوا ما عليهم، كما أنَّ تطوُّر طبائع الأبناء وسلوكياتهم مع الوقت، ووجود صحبة لكلٍّ منهم، كل ذلك يحتاج إلى رقيب عاقل بصير ومحاسب حازم، فعندما سافر زوجي كان أبنائي صغارًا، أما الآن فمنهم بالصفوف الإعدادية والثانوية، والكبيرة على مقاعد الدراسة الجامعية.

لعل أكثر ما يزعجني الآن هو أن الأب لم يعد يشغل أي مساحة من تفكير أبنائي، وكم أشعر باليأس والحزن عندما أجدهم يسألون عن المال الذي أرسله والدهم فقط! وليس متابعة حاله وأحواله، أشعر بالحسرة لذلك ولكن ماذا نفعل؟ ليس باليد حيلة».

وكما يُقال: «إن الغربة صعبة ولها ثمن»، هذا الثمن يدفعه المغترب من ذاته ومشاعره وعواطفه، وتدفعه الأسرة والأبناء والزوجة وبعض الناس ببعده عنهم، حتَّى وإن كان تطور وسائل الاتصال يساعد على التخفيف من آثار هذه الغربة، بالتواصل شبه اليومي مع الأهل، خصوصًا مع إمكانية الصوت والصورة وبدون تكلفة مادية أو بتكاليف بسيطة، ممَّا يخفِّف من آثار هذه الغربة ويجعل الشخص

وذويه على تواصل مستمر، وقد يلجأ البعض إلى التواصل والترابط مع بعض أهل موطنه في الدولة التي يعيش فيها، ومثل هذه الأمور تساهم في التخفيف أيضًا من آثار الغربة.

في الغربة لا شيء سهل

وعن غربته الصعبة يحكي ياسر فيقول: "استطعت -بفضل الله- بعد سنوات الغربة أن أتزوج وأفتح بيتًا، لكن ذلك لم يكن سهلًا كما يظن الكثيرون، حيث واجهتني صعوبات كثيرة، ولعلَّ أكثرها صعوبة كان من الناحية النفسيَّة، عانيت كثيرًا في البداية إلى أن نجحت في الاندماج مع نمط الحياة الجديد في الغربة"، ويضيف:

"من تلك المعاناة أنني في الأشهر الأولى كنت لا أستطيع النوم إلا ساعات قليلة، وكنت دائم القلق والحزن، ولم أكن أجد متعة في أي نشاط كنت أزاوله، لذلك فكرت بالعودة كثيرًا في الأشهر الأولى، والحمد لله أن سخَّر لي من يصبِّرني في غربتي، وأن جعلني أضع أحلامي نصب عيني هدفًا أسعى لتحقيقه، إلى أن حققت ما أصبو إليه، ولكنِّي بكل تأكيد لن أحاول التفكير بالسفر مطلقًا، على الرغم من وجود الفرصة والإغراء المالي الكبير فيها، فالحياة وسط الأسرة والأهل لا تقدر بمال الدنيا كلها".

يميل الإنسان غالبًا إلى أن يعيش في محيط الأسرة وبين الأهل والأصدقاء والأقارب، لكنَّ ظروف الحياة قد تضطره إلى أن يعيش فترة من الزمن خارج الوطن، بعيدًا عن الأهل والأحباب، وهذه الظروف قد تكون متعلِّقة بالدراسة، وقد تكون الغربة بحثًا عن العمل ومصدر الرزق، نتيجة الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها الكثير من الشباب والأسر في بلادهم، ولا شك أن الإنسان هنا يكون مضطرًّا إلى ذلك.

وربما تكون من أصعب المواقف عندما يكون الرجل مغتربًا بينما زوجته وأبناؤه في موطنهم، وذلك بسب ارتفاع تكاليف المعيشة في بلاد الغربة، فيتحمَّل الرجل تكاليف غربته ووحدته في مقابل ما يوفِّره لأسرته، فلو كانت معه الأسرة لن يوفِّر شيئًا، والبعض لن يستطيع توفير نفقات الأسرة.

والحقيقة أن سفر الرجل وحده -زوجًا أو أبًا- هو الغالب بين المغتربين، وبالطبع فإنَّ ذلك له آثار كبيرة على الجميع، الزوج والزوجة والأبناء، فالزوجة تزداد أعباؤها، وتصير كممثِّل أُسند له تمثيل دورين في نفس المسرحية، عليه أن يرتدي لكل شخصية ثيابها، ويتقمَّص دورها ويدخل إلى أغوارها، وقليل من يجيد ذلك، وغالبًا ما تطغى شخصية منهما على الأخرى.

تتعدَّد الأعباء الملقاة على كاهل الزوجة بين تربية الأبناء والسهر على راحتهم بوصفها الأم الحنون، وبين رقابتها وتوجيهها لأبنائها، والحزم معهم والتقويم إن تطلَّب الأمر، ومن الطبيعي أن تكون هناك أمور لا تستطيع الأم الخوض فيها مع أبنائها الذكور، وهنا يحدث نوع من القصور في أداء دور الأب المسند إليها.

وفي بعض الحالات تعيش الأسرة كلها في الغربة (الزوج والزوجة والأبناء)، وهذا الأمر إيجابيَّاته كثيرة على الأسرة من حيث اجتماعها في مكان واحد، وقيام كلٍّ بدوره، إلا أن ذلك لا يقلل من الآثار السلبية، التي تترتب على الأبناء، من العزلة عن محيط مراحلهم العمرية، وعدم وجود الصحبة التي ينمو الفرد بينهم

سلوكيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، فيخرج الأطفال منعزلين مقفولين ومنغلقين على أنفسهم، وأعلم من أعاد أبناءه للإقامة في موطنهم على الرغم من الإمكانات المادِّية المتاحة، وذلك لما رأى فيهم من الصمت والشرود ومظاهر التوحُّد، وتزداد الصعوبة عندما تكون الإقامة في دولة أجنبية وليست عربية حيث اختلاف العادات والتقاليد بشكل كبير.

وقد يتأثر الإنسان من ناحية أخرى بعادات وتقاليد البلد التي يعيش فيه، مما يؤثر على سلوكه عند عودته إلى موطنه.

أوَّاب وصدمة الرجوع

لم يكن أوَّاب الشاب السوداني يميل إلى الوحدة، ولم يكن يشتهي حياة الغربة والتشرد والسهر والنكد والعذاب، لكنه لجأ لذلك حالما أن يبني بيتًا جميلًا تجتمع فيه الأسرة ويلمُّ شتاتها، لهذا حمل حقيبته وغادر مطار الخرطوم إلى دول الخليج، مفعمًا بالأمل في عمل كريم، ومن ثم الحصول على قدر من مال النفط المسال ليبني ويؤسس به مشروع المستقبل...

لم يدخر أوَّاب جهدًا في سبيل هذا الحلم النبيل، أخذ يعمل ليل نهار دون كلل أو ملل أو ضجر، وكلما حصل على راتبه أو ثمن الوقت والأعمال الإضافية التي تأخذ من راحته وصحته ونومه، حصل على شيء من المال بعث به لشقيقه الأكبر، حتى تمكن من شراء قطعة سكنية في حي راقٍ، وقام شقيقه الأكبر بالإشراف على البنيان حتى اكتمل تأسيس البيت.

يعمل كثيرًا ويتعب، لكنه يشعر بالفرحة العارمة كلَّما أنجز شيئًا من أحلامه، وفرحته هذه تعالج تعبه وتنسيه ألمه، وتردُّ له كرامته، ومع الوقت بدأ يتذكر نفسه ويفكر في حاله، فصار يفكِّر في إكمال نصف دينه، فتمت الخِطبة ثم الزواج، ويرسل لزوجته لتقيم معه بالخليج، وسارت الأمور على أفضل مما يتمنَّى.

وتمر السنوات سريعًا، ويكبر أواب في عمله ويزداد دخله، وما يزال كما هو على عادته، فيحتجز من دخله ما يلزم أسرته الصغيرة، ويرسل كل ما يتبقَّى لشقيقه ليقوم عليها مستثمرًا، وهو يرسم حياته بعد عودته، لتكون حياة كريمة له ولشقيقه وللعائلة كلها.

لم يعد أوَّاب طامعًا في أكثر ممَّا حصَّل كل تلك السنوات، فقد حقق كل أهدافه وأحلامه من الغربة، فأنهى عمله، وحمل هداياه لشقيقه وأحبابه، واصطحب أسرته عائدًا لأرض الوطن والأحباب، عاد يملؤه الشوق والحنين، فاتحًا ذراعيه لصدر أمٍّ أظمأته الغربة لحضنها، وأخ جعله في مكانة والده وائتمنه على كل مدخراته وأمواله وأصوله...

وكانت الصدمة الكبرى! أقسى وأشد صفعات الحياة من شقيقه، الذي قام بطرده من البيت، وقال له بكل وقاحة وعدم إنسانية: "ليس لك مكان هنا معنا، خذ زوجتك وأولادك واستأجر في أي مكان آخر"،

ليكتشف أوَّاب بعد محاولات الحصول على (شقاء عمره) أنَّ شقيقه قد قام بتسجيل البيت وكل الممتلكات باسمه!

فيلوذ أوَّاب بأمه، ويبكي على صدرها كطفل صغير فاجأه الكابوس، فلم يجد أقرب منها ليطمئنه، الأم التي فعل كل ما يستطيع لرضاها وراحتها، وهنا كانت الصفعة الثانية، فيجدها قد وقفت في صف ابنها الأكبر، ودعمته في أكل حق أخيه، فيخرج أواب من بيته ويسكن في بيت الإيجار وتأبي نفسه الطاهرة غير الصبر وحسن العزاء في الوالدة والشقيق.

فتسوء أحواله ويتحوَّل إلى رجل معدم وفقير، ولأن الناس شهود على الأمر، يأتيه القاصي والداني وينصحونه بأن يلجأ للقضاء، فتأبي نفسه ذلك ويقول لهم: "نار الدنيا خير لي من نار الآخرة، كيف أشتكي وأمي سدَّت الباب أمامي وأجبرتني على الرضا بالظلم؟ قالت لي: لو ذهبت للمحكمة شاكيًا أخاك هذا، لن أرضى عنك ما حييت وعمري ما أسامحك، لقد احتسبت كل ذلك عند الله، وما عند الله خير وأبقى".

وصدق القائل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

فقد مرَّت الأيَّام والصدمة تزلزل كيان المسكين، عاش أوقاته ومرارة الألم والحزن والقهر والظلم لا تفارقه، هل بعد كل تلك السنوات من الشقاء والتعب والغربة يكون مصيره الفقر والعدم والعوز والحاجة؟ ليس اعتراضًا على قدر الله، إنما هي زفرات الشكوى من الظلم، فلو لم يكن عنده المال ما شغل تفكيره شيء، لكنه في عرف الناس رجل ثري، يملك الكثير والكثير لكنه مغصوب.

كل ذلك وغيره ملأ قلب المسكين وسيطر على تفكيره، ومنعه النوم والطعام والراحة، فأصابه المرض والهزال، ولم يجد من يقف إلى جواره سوى زوجته المسكينة الراضية، ليلفظ آخر أنفاسه، ويموت من الحسرة والألم والوجع بين يديها، يموت فقيرًا على الرغم من ثرائه، معدمًا على الرغم من امتلاكه، وحيدًا على الرغم من أسرته، يروح لمن لا يظلم عنده أحد، وعند الله تجتمع الخصوم، يغادر في صمت دون محاكم يطلب فيها بحقه من أقرب الناس، ودون فضائح تلوكها الألسنة، وتصير مادة لملء الجلسات، ذهب كريمًا ليدفع أغلى ثمن لثقته في ذوي رحمه، ويسأل: فيمن يثق إن لم يثق بهم؟! فقد كانت زوجته تسأله: لو عادت بك الأيام هل كنت ستثق في أخيك وأمك؟ فكان يجيب بلا تردُّد: نعم، لأن هذا هو الأصل وغير ذلك شذوذ.

مات أوَّاب ولم تمت معه معاني صلة الرحم وكرم الأخلاق، وعاش أخوه وأمه في أمواله وماتت عندهم نفس المعاني، وماتت المروءة والوفاء والأمانة.

مقطوع من شجرة

وعلى النقيض تمامًا تأتي قصة أحد رجال الأعمال، الذي كان مغتربًا لفترة طويلة، هذا هو أحمد الشاب المحترم المحبوب من الجميع، يقولون عنه: مقطوع من شجرة، فهو يتيم الأبوين، لكن له عائلة طيبة، أكرموه صبيًّا صغيرًا، ووجدوا له عملًا في ورشة سيارات، يرتزق منه هو وأخته بعد وفاة الوالدين في حادث، وأصر بعض رجال العائلة على أن يكمل تعليمه، فاتفقوا مع صاحب العمل -وهو قريب لهم- أن يجعله في ورديَّة مسائية، ليستطيع مواصلة تعليمة، وفي نفس الوقت يمارس عمله لينفق على نفسه وأخته.

يتفوَّق أحمد في دراسته فينتقل للجامعة، ويتفوَّق في عمله فيصير الأسطى الذي تقوم عليه الورشة، ويكمل تعليمه ويتخرج في كلية الهندسة، ثم يجد أحدهم إعلانًا في جريدة عن عمل في إحدى دول الخليج، فيسارع لإخبار الباشمهندس أحمد -كما صاروا ينادونه-.

الفرصة رائعة والراتب كبير، لكن المشكلة في نظر أحمد ليس لها حل، فلمن يترك أخته؟ فهي في السنة النهائية للجامعة، لكن عمه الحاج محفوظ الرجل متوسط الحال، الذي في مكانة والده والمتعهِّد برعايته من البداية، يذكِّره بأن أخته يتقدم لها العرسان، وزواجها سيتطلَّب منه الكثير، وأن الفرصة لبناء مستقبله قد لا تعوَّض، ويجد له حلًّا حتى لا تضيع تلك الفرصة، تقيم أخت أحمد في بيت الحاج محفوظ مع بناته، وهو لم ينجب غير البنات، والحساب يجمع فيما يخص نفقاتها وطلباتها.

يسافر أحمد ويبدأ في جني ثمار غربته، فقد استقر به الحال، وصارت له مكانة كبيرة في الشركة التي يعمل بها، وتطمئن نفسه برسائل ومكالمات أخته عن حسن معاملة الحاج محفوظ وزوجته وبناته، وأنها تشعر أنها أحد أفراد تلك الأسرة.

كان من الطبيعيِّ أن يرسل أحمد مصروفات أخته، وكان يتعمَّد أن يزيد عليها، فالحاج محفوظ متوسط الحال والنفقات كثيرة، ولعلَّه يحتاج إلى زيادة، وهذا من باب رد الجميل، وعند أول زيارة في إجازته السنوية، وبعد أن تنتهي فترة زيارات الناس ليسلموا عليه، يجلس معه الحاج محفوظ، ويعطيه ورقة ومبلغًا كبيرًا من المال، ويقول له: "هذه نفقات أختك في الورقة لأنك حلَّفتني قبل السفر، ولولا ذلك ما أخذت جنيهًا واحدًا، فهي واحدة من بناتي، وهذا المال زيادة، كنت ترسل الكثير يا بني، لم إيدك شوية".

يقول أحمد: "على الرغم من وفاة والدي وأمي، وعلى الرغم من عدم وجود إخوة لي، ولم يكن لي دخل إلا أجر اليومية في الورشة، على الرغم من كل ذلك فقد كان من حولي سببًا في امتلاكي لمصنع ومعرض سيارات، يعمل فيهما العشرات من أبنائهم، وأشهد الله أنِّي لم أجد بينهم طامعًا، ولم أرَ فيهم مستكثرًا عليَّ رزق الله الوافر، وما حاول البعض استغلالي أو الاحتيال عليَّ أو أكل مالي إلا وقفوا له بالمرصاد، والعجيب أنهم على الرغم من ثرائي الآن ما يزالون يشفقون عليَّ لأنني يتيم"!

بعد العودة: حيٌّ ميِّت

قصة نشرتها إحدى الصحف في مصر، مع مقابلات وصور لأصحاب القضية، إبراهيم ذلك الرجل البسيط يذكر ما حدث، بداية من أسباب غربته منذ ثلاث عشرة سنة، حين وجد نجله الأكبر حزينًا، ويخبر والده برغبته في السفر إلى إحدى الدول العربية، ليلتحق بالعمالة المصرية في مجال المعمار هناك، ليوفر نفقات التحاقه بالجامعة، فطلب منه الوالد البقاء بجوار والدته وأشقائه واختار أن يسافر هو بدلًا من الشاب الجامعي، وبخاصة أنَّه فلاح وعمل فترة مساعد بنَّاء، وخبرته في العمل اليدوي جيِّدة.

سافر إبراهيم ووفَّر كل الأموال التب طلبها منه نجله، وعندما أراد العودة طلبت منه أسرته البقاء، لتوفير متطلبات زواج ابنته الكبرى، فاستمرَّ في عمله، ثم خُطبت الثانية فظلَّ لعامين آخرين لتوفير نفقات زواج نجلته الثانية، كان يرسل لهم كل ما يتحصَّل عليه من مقابل لعمله المرهِق، ولا يبقى معه إلا مقابل طعامه وشرابه.

انقطعت الصلة بين إبراهيم وبين أسرته على مدار أربع سنوات، نظرًا لظروف سياسيَّة وأيام حرب قاسية خاضتها تلك الدولة، ثمَّ عاد بعد محاولات كثيرة، نجا خلالها من الموت مرات ومرات، عاد الزوج والوالد لمنزله بإحدى محافظات القناة، عاد وهو يحمد الله أن عوَّضه عن تعبه خيرًا، فالمال الذي أرسله خلال تلك الفترة يضمن مستقبل الأسرة في حياة كريمة ميسَّرة.

رجع إبراهيم للإقامة مع أسرته، وبعد حسن استقبال زوجته وأولاده له، مع بعض الاضطراب الذي لمحه منهم، وفسَّره على أنها مظاهر الفرحة العارمة بعودته، فوجئ بهم يخبرونه بأنهم أخرجوا له شهادة وفاة منذ عامين بسبب انقطاع أخباره، ضحك الرجل قائلًا: "يعني ربنا ينجيني من الموت أكثر من مرة وأنتم تموِّتوني وتطلعوا لي شهادة وفاة؟"، ويكمل مزاحه الذي لا يخفي حزنه مما فعلوه: "طيب كنتم انتظرتم رجوع جثتي".

طلبوا منه كل الأوراق الخاصة به من جواز سفر وشهادة تحركات وغيرهما، بحجة أنهم سيرفعون دعوى قضائية لإثبات أنه على قيد الحياة، أعطاهم كل أوراقه لتصليح الخطأ، لكنَّه بعد يومين فقط، وجد سوء معاملة منهم ثمَّ قاموا بطرده من المنزل قائلين له: «أنت ميت»، صعقته الصدمة لكنَّها لم تقتله، فهو الفلَّاح العامل العفيُّ، طالبهم بأوراق إثبات شخصيته التي أعطاهم إياها، أكدوا له أنهم مزقوها، وهو الآن في نظرهم ونظر الجهات الرسمية ميت والمستند شهادة الوفاة.

كانوا يعيشون حياة هادئة، ولم يكن يتخيل أن يأتي عليه يوم يجد جحودًا وطردًا وإهانة ممن عاش حياته من أجل توفير الحياة الكريمة لهم.

توجَّه إبراهيم لشقيقه الذي يقيم بمحافظة أخرى، ليقيم عنده وليرفع دعوى قضائية باسمه، وطلب القاضي حضور زوجته وأبنائه لمواجهته، وكانت المفاجأة التي أذهلت عقله المحدود، أن زوجته وكل أبنائه اتفقوا على كلام واحد، هو أنهم لا يعرفون ذلك الشخص، وكل صفاته مغايرة لصفات أبيهم -رحمه

الله-، اعترفوا أن الرجل الآخر الذي أمامهم هو عمُّهم، لكنَّهم لا يجدون تفسيرًا لما يفعله، لماذا يأتي مع غريب يدَّعي أنه أبوهم؟ لعلَّه الطمع فيما تركه المرحوم من عمله بالغربة.

طالب القاضي بتحليل «DNA»، توجَّه إبراهيم وشقيقه لمكان عمل التحليل، بينما رفض الأولاد والزوجة الحضور، فلم يكن هناك حلٌّ إلا أن تتم عملية التحليل بينه وبين شقيقه، الذي كان متأثرًا حزينًا مما وصل له أبناء أخيه من النكران والجحود، حتى يستخرجوا شهادة وفاة لوالدهم، ظنَّها في البداية تسرُّعًا وخطأً غير مقصود، بسبب انقطاع أخبار والدهم عنهم طوال أربع سنوات، ولكنهم تمادوا في ظلمهم لأبيهم، مؤكدًا أنهم كانوا يخططون للاستيلاء على أمواله وأرضه ومنزله منذ عدة سنوات، فأعماهم المال والأرض عن صلة الرحم.

تمَّ توكيل محامٍ للمطالبة بإثبات حياة الأب، وتمكَّن ذلك المحامي من استخراج البصمة للحاج إبراهيم، وإثبات أنه على قيد الحياة، وتمَّ إلغاء الحكم السابق بالفقد في جلسة المحكمة التالية، وتبيَّن للجميع كيف تجردت الزوجة والأبناء من كل مشاعر الإنسانية، وكيف حرَّكهم الطمع ليطردوا والدهم من المنزل.

انتهت قصة الحاج إبراهيم ولم تنتهِ الحكاية، فتبقى الصدمة في انتظار المغترب، وتظل الأسئلة تتوالى، ما الذي يجعل مثل هذه القصص تحدث؟ هل لأن المغترب قاصر الفهم وجعل كل همه النواحي المادية فقط؟ أن يوفِّر لهم المادة مع التقصير الكبير في التربية والتوجيه والتنشئة على مبادئ الدين وقيمه ومثله؟ أم أن القصة تتلخَّص في النكران والجحود المتأصلين في بعض الشخصيات؟ ألم ينكر أحد أبناء نوح -عليه السلام- والده؟ ولم يصغ لرسالته فكان من المغرَقين؟ ألم تخن امرأة لوط -عليه السلام- زوجها النبي بالوشاية بضيوفه وتتبع القوم الكافرين؟

ما أقساه من شعور أن تكون الصدمة في أقرب الناس!

الفصل الثامن

على رأي المثل

المثل الشعبي من أكثر فروع الثقافة الشعبية ثراء، حيث يجسد المثل الشعبي تعبيرًا عن نتاج تجربة شعبية طويلة تخلص إلى عبرة وحكمة، ومجموعة الأمثال الشعبية تكون ملامح فكر شعبي ذي سمات ومعايير خاصة، فهي إذن جزء مهم من ملامح الشعب وأسلوب حياته ومعتقداته ومعاييره الأخلاقية.

قد تنوعت تعاريف المثل، لكنها جميـعًا لا تخرج عن أنه: "قول مأثور، تظهر بلاغته في إيجاز لفظه وإصابة معناه، قيل في مناسبة معينــة، وأخذ ليقال في مثل تلك المناسبة"، وقد كان إدراك العرب أهمية الأمثال، سواء كانت فصحى أم شعبية جليًّا وواضحًا، فجمعوها وحرصوا عليها.

ومن تعريفاته: "جمـلة مفيدة موجزة متوارثة شفاهةً مـن جيل إلى جيل، وهو جملة محكمة البناء بليغة العبارة، شائعة الاستعمال عند مختلف الطبقات".

على ألسنة الشعوب يتمُّ تداول أهم ما يدور بينها ويشغل تفكيرها، وإن أردنا أن نعرف أهم الموضوعات التي تشغل الرأي العام فانظر لمخرجات تلك الشعوب، فهي بمثابة (الترند) في أيَّامها، وأكثر ما يمكن استدعاؤه على ألسنة العامَّة مما يقيس نبض الشعوب وأهم ما يشغلها: الأمثال والأغاني الشعبيَّة، فالألسنة تنطلق بما تريد العقول قوله، وما تضمره القلوب، ولن تجد أيسر وأبلغ من مثل شعبي يلخِّص الحالة، أو أغنية تراثية توضح المشاعر وتلبسه ثوبًا رائعًا من الكلمات واللحن الجميل.

وقد تجد مثلًا يتناول الموضوع من وجهة نظر معينة، ومثلًا آخر يتناول نفس الموضوع من وجهة نظر مغايرة، وقد يكون الأمر محبوبًا في أحد الأمثال مكروهًا في مثل آخر، فهذا ليس لأن الفكر الشعبي متناقض، بل لأن التجارب والحالات شديدة التنوع، ولو اقتصرت الأمثال على إظهار جزء من الخبرات غير المتناقضة لما حقَّ للدارسين أن يعدوا الأمثال صورة للفكر الشعبي وخبراته، ولكان ظهور جزء من الصورة وخفاء جزء، ووظيفة الأمثال هي تسجيل خبرات الشعب من كلِّ الوجوه، والحفاظ على قيمه وعاداته وتقاليده من الاندثار، ونقل خبرات الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد.

ولأنَّ الميل النفسي لمسقط الرأس وموطن الآباء أمر فطريٌّ جُبِل الناس عليه، فكل امرئ يشعر بالانتماء لوطنه بحجره وبشره وشجره وأرضه وسمائه، ولا يشعر بالراحة إلا به، لكنَّ الظروف قد تضطر البعض إلى الهجرة والتضحية براحتهم ومكابدة المصاعب بلا اختيار منهم ولا إرادة، ما يجعلهم يعاركون الحياة في ميادين لم يعتادوها، فيعانون الويلات ويتعرضوا للمخاطر، وتثقل الهموم ثواني أعمارهم، ويعيشون القلق والخوف وآلام الحنين إلى ذويهم ومجتمعهم وكل ما في أوطانهم.

فالإنسان ليس الإنسان الذي ألفوه، والقيم ليست القيم التي قدَّسوها، والناس من عرق غريب الملامح، غريب المشاعر، يحملون قناعات أصبحت جزءًا أصيلًا منهم يوحي إليهم بإلهامات غريبة كغرابتهم، والسماء ليست ذات السماء التي ألفتها أبصارهم، والأرض ليست الأرض التي اعتادتها أقدامهم.

الغربة في الأمثال الشعبية

لعل الأمثال الشعبيَّة المصرية هي الأشهر في كل المجالات، والأكثر انتشارًا على ألسنة الناس بمختلف جنسياتهم، وبالطبع فللإعلام والدراما دور كبير في ذلك، على الرغم من ذلك فإنَّها لا تختلف كثيرًا عن غيرها في تعاطيها مع الغربة، فتتحدَّث عن الغربة وتصف المغتربين، وتقدِّم النصيحة لهم، وتحذِّرهم كذلك من طول الغياب:

"الغريب أعمى ولو كان بصير"، فيوضِّح ذلك المثل صعوبة الحياة على الغريب، فهو مثل الأعمى في بلاد الغربة، يحتاج إلى الدليل الذي يرشده ويأخذ بيديه.

"الأرض بفلوس والسما ببلاش"، كناية عن مكانة أرض الوطن وقيمتها.

"البعيد عن العين بعيد عن القلب"، وفيه تحذير لمن يريد الغربة، فلن يضمن مكانته في قلوب من حوله بعد اغترابه، فقد يعتادون بعده ويأخذ غيره مكانه.

"الغريب لو صح أحسن من ألف أخ"، وهذا المثل يأتي لتطمين النفوس بأن الغربة أيضًا لا تخلو من الطيبين الذين يصيرون أفضل من أخوَّة النسب.

"اللقمة ما تحلى ولا تطيب إلا بوجود الحبيب"، وهذا شيء ممَّا يشعر به المغترب حيث صعوبة ابتلاع لقيمات تقمن الصلب، فلا تطيب ولا تحلو في البعد عن الأهل والأحباب.

"جنَّة من غير ناس ما تنداس"، وحينما يمتدح أحدهم بلاد الغربة يردُّون عليه بأنَّ الجنة في غياب الأحباب لا تطيب.

"من طلع من داره إتقلّ مقداره"، أيضًا هنا يظهر ذلك المثل قلة الحيلة والقهر الذي يحيط بالمغترب في بلاد الغربة.

التغريبة الفلسطينيَّة

وقد زجت الحياة بالفلسطيني في جحيم الاغتراب تحت ضغط الحاجة إلى لقمة العيش والأمن، وهربًا بالروح والأهل من حفنة غزاة من ذوات غريبة تعادي الحياة وتقدِّس الجريمة دينًا ومعتقدًا، لهذا نجد الفلسطينيين منتشرين في العديد من بقاع العالم يقاسون لهيب الغربة، الذي يلفح أفئدتهم.

ونظرًا لما يعانيه الفلسطيني المغترب عن أهله ووطنه فقد صاغ لسانه كنزًا من التعبيرات التي تقدس الوطن وتحذِّر من الاغتراب...

ومن التعبيرات التي تنهى عن الاغتراب:

“إبلادك ولو شحَّت مرية”، أي إن النفس تحبُّ الوطن، مهما واجهت فيه من الصعاب والفقر.

“أبو جعران (الصرصور) في بيته سلطان”، أي إنَّ المرء عزيز في وطنه مهما كان وضيعًا.

“اتغرَّبنا تا نشبع مَرَقَة”، أي إنَّ غربتنا عن أهلنا ووطننا لم تفدْنا، وكانت وبالًا علينا.

“أرضك، عرضك”، وهو قول غالِبًا مَا يُساقْ في ضرورة صون الأرض والدفاع عنها.

“ارحل عن الأرض، وَلا تبيعها”، أي إنَّه من الممكن البعد عن الأرض لكنَّ بيع الأرض مرفوض، فهو يلغي الارتباط بالوطن.

“البعد جفا”، أي إنَّ الابتعاد عن الأهل والأقارب والأصدقاء يمحو مشاعر المحبَّة والشوق، ويتحوَّل مع طول الزمن إلى نسيان وعدم اهتمام.

“البعيد عن العين، بعيد عن القلب”، أي إنَّ بعد المرء عن ذويه وأصدقائه يقطع الألفة ومشاعر الشوق بينهم، ويجر الجفاء، ويروض النفس على احتمال القطيعة.

“الغربة تربة”، أي إن الغياب عن الأهل بالاغتراب، يشبه الموت، حيث تنقطع الأخبار، وينقطع التواصل.

“الغُرْبَة كُرْبَة”، أي إن للغربة أثرًا نفسيًّا قاسيًا، يماثل قسوة المرض. وهو قول غالِبًا مَا يُساقْ في وصف قسوة الاغتراب عن الأهل. (كربة: مرض ومصيبة).

“الغربة مُرَّة”، أي إنَّ للاغتراب عن الأهل قسوة نفسية عظيمة، ومذاقًا مرًّا من الصعب تحمُّله.

“الغريب أعمى ولو كان بصير”، “الغريب أعمى ولو مفتح”، أي إنَّ المغترب يجهل العادات وأساليب الحياة والتقاليد، وجغرافية المكان، وطرق التعامل في البلاد التي يعيش فيها، ما يجعله يقع ضحية لجهله، فلا يتمكَّن من الحصول على أمور كثيرة.

“إلّي إِلُهْ غايب بظل قلبه ذايب”، وهذا المثل يصف ذوي المغتربين برقة القلب وذوبانه شوقًا لهم وحنينًا لرؤياهم، حيث تسيطر عليهم تلك المشاعر تجاه المغترب.

“إلّي بِطْلَعْ من دارُه، بِقِلّْ مِقْدارُه”، أي إنّ من يرِد أن يغترب عن وطنه فليتذكَّر جيدًا أن وطنه كان يصون كرامته، وينزله قدره، بينما في الغربة متوقع أن يلاقي الويلات.

“إلّي في بَلَدُه قُنْطار؛ في بلاد الغُرْبَة، وْقِيِّة”، أي إنَّ من يغترب عن أهله وبلده فإنَّ قيمته تهبط، وينحطُّ قدره.

“روحوا ولا تْلِدَوا لحدا؛ ماني عليكم يا الربع عتبان”، وهو قول يسوقه الأب لإظهار التحسُّر على ابنه حين يهم بالسفر.

“طوف وشوف”، أي إنَّ مَن يكثر من السفر يرى أمورًا غريبة، لم يكن يتصوَّرها ولم يكن يتقبَّلها.

“قطع الأعناق ولا وجع الفراق”، وهو قول غالِبًا مَا يُساقْ للنهي عن دوام الغربة، ويحضُّ المغترب على الرجوع إلى أسرته على فترات.

"ما فراق غير فراق المِحِبِّين"، وهو قول غالِبًا مَا يُساقْ لإظهار التحسُّر على سفر الأحبة والأبناء والأهل.

"يا معمِّر في غير بلدك، لا هو إلك ولا هو لولدك"، وهو قول ينصح المغترب بعدم البناء، وفتح المشاريع في ديار الغربة.

ومن التعبيرات الفلسطينية التي تخص أسلوب التعامل الذي يفترض في المغترب انتهاجه في بلاد الغربة:

"البلاد إلِّي ابتصلها كل من بصلها"، أي عليك أن تعاشر أهل البلاد التي تسكنها، وتتعامل مع أمور الحياة بحلوها ومرها، كما يفعلون.

"الغريب للغريب نسيب"، أي إن أبناء ذات البلد تربطهم في غربتهم علاقات وطيدة تحتم عليهم مساعدة بعضهم.

"حَيِّهِمْ ما دمت في حَيِّهِمْ (مثل فصيح)"، أي يجب أن تحترم مُواطني البلد التي أنت فيها.

"يا غريب كن أديب"، أي إنَّ على الغريب أن يتعامل بلطف وأدب مع أهالي البلد الذي يسكنه، وأن يلتزم بالضوابط الاجتماعية التي تحكمهم. إضافة إلى أنه يذكر لنهي الغرباء عن التدخل في أمور المضيف.

ومن التعبيرات التي تخص عودة المغترب إلى وطنه:

"البلاد طلبت أهلها"، وهو قول يسوقه المرء إذا حن للرجوع إلى أسرته وأهله.

"التقوا الأحباب بعد الغياب"، وهو قول غالِبًا مَا يُساقْ للتعقيب على اجتماع الشمل ورجوع الأصدقاء والأحبة من الغربة.

"الجنة بدها أهلها"، وهو قول غالِبًا مَا يُساقْ للحض على التمسك بالعودة للوطن.

وقد نسج اللسان الفلسطيني العديد من التعبيرات التي تنتقد من يفشل في تحقيق المكاسب من بلاد الغربة، منها:

"رجع إيد من ورا وإيد من قُدّام"، أي إنه خاب ورجع دون تحقيق أي مكسب.

"رجع مثل القفة المقعورة"، أي إنه خاب ورجع من غربته خاسرًا لا يملك شيئًا.

"طوَّل الغيبة؛ ورجع في الخيبة"، أي إنه، على الرغم من طول غيابه، خاب ورجع دون تحقيق أي مكسب. وهو قول يسخر ممن يفشل في إنجاز أمره على الرغم من طول غيبته.

أمثال سوريَّة

ولأنَّ الأحوال في كل بلاد الوطن العربي متشابهة، والغربة تطال الجميع، واللسان على الرغم من اختلاف اللهجات واحد، لكل ذلك نجد تشابهًا في الأمثال الشعبية عن جميع الشعوب، فمثلًا من الأمثال الشعبيَّة السوريَّة عن الغربة:

أمثال في الغياب...

(الغايب حجِّتو معو)، أي حجَّته وعذره.

(الغايب مالو نايب)، أي لا بديل عنه، على الرغم من أنَّ الناس فهموها على أن الغائب يجوز أكل حقِّه ونصيبه.

(من طوَّل الغيبات جاب الغنايم).

(الغايب إلكن والهدايا إلنا)، تقال على سبيل الممازحة لأهل الغائب عندما يعود، هو لكم نصيبكم منه الفرحة لأنه أتى بالسلامة، ونحن نصيبنا منه الهدايا التي يحملها معه.

(اللي بيغيب عن العين بينساه الخاطر).

(اللي بيغيب عن العين بيسلاه القلب).

(كتر الغياب بيفرق الحباب).

ومن الواضح هنا أنَّ المقصود هو التحذير للمغترب من تطويل الغياب، حتى لا ينساه القلب، ويفقد مكانه عند الأحباب.

ومن أمثال في الغياب المشهورة أيضًا:

(الغربة كربة).

(الغربة تضيع الأصل).

(الغربة مضيعة الأصايل).

(ما بترجع أم رزوق حتى يفلّ السوق).

(متل شوفان بيغطس بالميّ ما ببان).

(ودِّع الرايح ولا تستقبل الجاي).

(غيبة المستحيَّة من عابكرة لعشية).

(راح وهادا وجه الضيف).

الفصل التاسع

طَـرَبُ الغُـربة

قد يرى البعض أن الحديث عن الغربة بهذه الطريقة مبالَغ فيه، ويؤوِّلون ذلك برفاهية المغترب، أو أنَّ شكواه هي جزء من مستلزمات الغربة لإبعاد الأعين واتِّقاء الحسد، ولكن حينما تجد هذا الكم الكبير من الكلام الراقي عن الغربة ومدى تأثيره على الناس، وكيف أنه التصق بهم وصار حداءهم وتسليتهم في أغلب الأوقات، أقصد هنا الفن الشعبي الراقي بوصفه نشاطًا بشريًّا نابعًا من مشاعر الشعوب ومعبِّرًا عنهم.

وبالطبع نشير هنا إلى بعض النماذج الراقية التي خرجت من رحم المعاناة وعبَّرت عنها؛ معاناة الغريب في الغربة وأهوالها، ومعاناة أحبابه وغربتهم بفراقه وفقدانهم إياه، وخلو الديار من رسمه ووسمه وصوته وصمته، فتخرج تلك الكلمات في صورة أغانٍ نسمعها من الناس بأصواتهم ونتأثر بها أكثر من كونها مجرد أغنية، وهذا ما يميِّز أغاني التراث التي تتحدَّث عن الغربة والغريب والشوق والحنين للأوطان وللأهل والأحباب، وكذلك تلك الأغاني التي تحوَّلت للسان حال الناس في أحوال غربتهم واكتسبت صفة التراثيَّة، وصار الناس يتغنَّون بها في كل موقف يستدعي ذلك.

ينطلق لسان الغريب -من كلِّ الجنسيّات- بصورة تلقائية بأغنية ما تزال ترن في أذنيه، لأنها تعبِّر عنه وعن معاناته وتذكُّره بالوطن والأحباب، وتناسب الحالة الشعورية والموقف الحالي له، ومهما كان صوته أجش أو بعيدًا عن الطرب أو غير مقبول من الناس، إلا أنه يطرب لأنه صادق يخرج من قلب حزين أو مكسور أو مشتاق أو مقهور.

أذكر حين كنَّا صغارًا في قريتنا، ومع ضيق الحال لجأ بعض الشباب للسفر للبحث عن لقمة العيش وتكوين مستقبله، ولم تكن الأمور سهلة، فمنذ أن يخرج تنقطع أخباره تمامًا بالشهور، حتَّى يصل أول جواب منه إلى أهله وأحبابه، وأحيانًا شريط كاسيت، وهذا وحده كان كافيًا لطمأنة الأهل أنه ما يزال على قيد الحياة، أما أحواله وعمله وظروف غربته فسوف تحكيه لهم الأيام القادمة عند عودته بإذن الله، وكان الجواب لا يحمل أكثر من أنه بخير وسلام، وعمله وسكنه وصحبته بشكل مختصر، مكرِّرًا السلام -عشرات المرات- إلى فلان وفلانة ألف مليون سلام.

كان في كل شارع خرج منه أحدهم تدور على ألسنة الناس أغنية مشهورة عن الغربة، ومن أكرمه الله وامتلك جهاز كاسيت فكان عليه أن يسمِع الجميع الأغنية طوال اليوم حتى يعود المسافر، مع بعض الاستثناءات، فيتمُّ تشغيل الأغاني المعبِّرة عن كل مناسبة جديدة عند أحد الأقارب أو الجيران: فرحًا كان أو حالة وفاة أو حَجًّا أو سبوع مولود.

كان الجميع يغنِّيها، ليبكي الكثيرون متأثرين بها، ويتداولون كلمات التصبير والمواساة على فراق الغائب، وكلمات الأمل والبشريات بعودته سليمًا مرفوع الرأس و(كايد العدا)، عودته ومعه الفرج المنشود والأموال التي تحسِّن من مستواهم المعيشي، فيتم بناء البيت وتزويج الولد، وتجهيز البنت وشراء سيارة للعمل عليها أو فتح دكان يكون مصدر دخل آمنًا فيما بعد و(ياكلوا منه عيش).

يبتسمون جميعًا عند ذكر البشريات وفتح باب الأمل، وتكون الفرصة التي لا تعوَّض لحجز نصيب من هدايا الغائب عند عودته: "لكن ما تنسونيش لما يرجع، حلاوتي راديو بحجارته"، والأخرى لن تتنازل عن كشَّاف يساعدها في دخول الحظيرة لحلب الجاموسة ليلًا، والثالثة تطمع في قطعة قماش كسوة لعيالها، ويتدخل الجد العجوز الجالس على المصطبة متابعًا ما يدور: "اوعوا تنسوني أنا عاوز حتة دمُّور أعملها لباسين"، فيضحكون جميعًا ثم ما يلبثون أن يعودوا للأغنية.

ونعود بالعقول والقلوب ونغني معهم ونعيش شعورهم، حيث يعلم المسافر أن أمَّه لا تكف عن البكاء لغيابه، فيطلب منها عدم البكاء، فمهما طالت الغربة فعودته محتومة، ويطلب منها الدعاء له، وأن تتفاءل ولا تهمل نفسها، ويعدها بأنه سيرسل لها كثيرًا ليطمئنها...

تقول كلمات الأغنية:

ما تـبـكيش عـلـيَّـا يا مَّـا مـا تـبـكـيـش
مهما تطـول الغربة راجع ما تخـافـيش
ما تـبـكيش عـلـيَّـا يا مَّـا مـا تـبـكـيـش
مهما تطـول الغربة راجع ما تخـافـيش
بس تخلِّي بالك منِّي بس تخلي بالك مني
وليـل نـهار ادعـــيلي يا مَّا مـا تـنـسـيـش

وهذا الجزء الذي كان يتمُّ ترديده بصوت حزين ودموع تهطل، مع مد الصوت الحزين في الكلمة الأخيرة وهذا يتيح للبكاء مكانًا مع الياء والشين في النهاية.

ما تـبـكيش عـلـيَّـا يا مَّـا مـا تـبـكـيـش

مهما تطــول الغربة راجع ما تخــافــيش

ما تــبــكيش عــلــيَّــا يا مَّــا مــا تــبــكــيــش

مهما تطــول الغربة راجع ما تخــافــيش

بس تخلِّي بالك منِّي بس تخلي بالك مني

وليــل نــهار ادعـــيلي يا مَّا مــا تــنــســيــش

خلِّي الشمع منوَّر يا مَّا	إوعي تباتي في يوم عالضلمه
لو عايزاني ارتاح في الغربة	ارتاحي يا مَّا ما تتعبيش

بس تخلِّي بالك منِّي بس تخلي بالك مني

وليــل نــهار ادعـــيلي يا مَّا مــا تــنــســيــش

ما تــبــكيش عــلــيَّــا يا مَّــا مــا تــبــكــيــش

مهما تطــول الغربة راجع ما تخــافــيش

أول ما اوصل تاني يوم	هابعتــلك مراسيل بالكوم
لو عايزاني أشوف النوم	تــنامي يا مَّا ما تسهريش

بس تخلِّي بالك منِّي بس تخلي بالك مني

وليــل نــهار ادعـــيلي يا مَّا مــا تــنــســيــش

ما تــبــكيش عــلــيَّــا يا مَّــا مــا تــبــكــيــش

مهما تطــول الغربة راجع ما تخــافــيش

أنا مش عايز أبعد عنِّـك	وأنا في الغربة راح اشيل همِّك
لو كان بإيدي هافضل جنبك	لـــكن يا مَّـا مــا بـيـدِّيـــش

بس تخلِّي بالك منِّي بس تخلي بالك مني

وليـل نــهار ادعـــيلي يا مَّا مــا تــنـسـيـش

ما تـبـكيش عــلـيَّـا يا مَّــا مــا تـبـكـيـش

مهما تطـول الغربة راجع ما تخـافـيش

يا مَّا ادعيلي وقولي يا قادر	أرجعلك مجبور الخاطر
يا مَّا ادعيلي وقولي يا قادر	أرجعلك مجبور الخاطر
ناس بتروَّح ناس بتسافــر	كلُّه يا مَّا على أكل العيش

بس تخلِّي بالك منِّي بس تخلي بالك مني

وليـل نــهار ادعـــيلي يا مَّا مــا تــنـسـيـش

ما تـبـكيش عــلـيَّـا يا مَّــا مــا تـبـكـيـش

مهما تطـول الغربة راجع ما تخـافـيش

ولمزيد من التأثير كانت المغنيات يضعن اسم الأم أو الأخت أو الزوجة مكان كلمة (يا مَّا)، ممَّا يزيد من إثارة الدموع وجلبها من أعين المستمعين، مع الإبدال بين الكلمتين (ما تبكيش- ما تنسيش)، وصار الجميع يحفظونها عن ظهر قلب، ولكنهم لا يملون من سماعها.

سلامات سلامات

ولا تقل معاناة الأهل والأحباب عن معاناة الغريب في غربته، فقد صاروا غرباء في غيابه، وشوقهم له ليس أقل من شوق الغريب لوطنه وأحبابه، وبعد أن تعدَّدت حالات السفر في القرية، ثم طالت غيبة المسافرين لسنوات، وجدنا كثيرًا ما تتردَّد كلمات هذه الأغنية على ألسنة أحبابهم وذويهم، وفيها النداء على المغترب وإرسال السلام إليه، لأنهم افتقدوه دون غيره، وتدعو الكلمات المغترب لإعادة التفكير في الغربة، وأن الحياة في غربة لا تساوي أموال الدنيا كلها، ولا ضياع فترات الشباب بعيدًا عن الأهل والأحباب.

تقول كلمات الأغنية التي كنَّا نرى غزارة الدموع من الأهل عند الاستماع إليها:

سلامات سلامات سلامات

يا حبيبنا يا بلديات

شوف سافروا معاك كام واحد

ما وحشناش منهم واحد

لاااااا لااااااا لا لا لا

ده انت وحشتنا بالذات

تسوى إيه العيشة بعيد

وانت فيها غريب ووحيد

ده ان لقيت في الغربة المال

فين هتلقى راحة البال

يا بن بلدي صدق من قال

ما في شيء عندنا يغنيك

هجرة ايه؟ اللي تخلّيك

تضني ناس بيدوبوا فيك

أيّ بعد بين الأحباب

مهما كان حلو الأسباب

برضه فيه في النفس عذاب

وانتظار على نار بتقيد

دي الحكاية يا نور العين

شوف شبابك بيروح فين؟

كل شيء ف الدنيا يهون

ونلاقيله بديل مضمون

غير شبابنا زمانه يكون

لو يضيع نجيبه منين؟

سلامات سلامات سلامات

يا حبيبنا يا بلديات

شوف سافروا معاك كام واحد

ما وحشناش منهم واحد

لااااااا لاااااااااا لا لا لا

ده انت وحشتنا بالذات

ويلي من الغربة يابا ويلي

وعلى طريقة المثل الشعبي المصري، القائل: "قالوا إيه اللي رماك على المر؟ قلت: اللي أمر منه"، تتناول هذه الكلمات معاناة الشباب في الغربة، التي يحسدهم البعض عليها، ولا يرون في الغربة إلا أنَّه يغرف الأموال من بحر، ويعيش أهنأ العيش وأكرمه، ويغرِق أهله وذويه بالهدايا، ويطمعون فيه ويتمنَّون مكانه.

تلوم الكلمات من يحسدون الغريب، وينسون ضياع عمره وشبابه، وغيابه عن أهله وأحبابه، ومرارة الغربة وقهرها، وترى أن المقيم في وطنه مهما كانت أحواله فهو أفضل من أي مغترب مهما جمع، فثمن الغربة يتم دفعه بالدم والجهد والروح.

ويلفت النظر هنا شيوع هذه الكلمات على ألسنة الشباب من أصحاب المهن اليدوية، فكثيرًا ما تسمعهم يتغنون بها في أثناء أعمالهم، أو في انتظار العمل أو في الطريق إليه، ويردد أحدهم معقِّبًا: "فعلًا والله، لو آكلها بدُقَّة (ملح) في بلدي أحسنّ".

تقول الكلمات:

ويلي من الغربة يابا ويلي	ويلي ويلي ويلي ويلي ويلي
بعد سنين في الغربة شافوني	قالولي جايب إيه من برَّا؟
قلت يا ريتهم لو سألوني	أنا في الغربة بكيت كم مرة؟
جبت حاجات من اللِّي يحبُّوها	جبت فلوس ويا ريت ياخدوها
ويردُّولي شباب ضاع منِّي	وسنين مُت وهُمَّا عاشوها
على إيه بس يا ناس حاسدينِّي؟	واشقى ما فيكم أسعد منِّي
أنتم عشتم أحلى سنينكم	وأنا في الغربة ما عِشْتِش سنّي
أنا الكبير قبل أواني	أنا بختي للغربة رماني
خُدوا منِّي كل اللِّي جمعته	وارجع صغيِّر من تاني

أنا راح عمري ألم ودموع	أنا قضِّيتها سفر ورجوع
وان فكَّرت اضحك من قلبي	قلب الغربة يقول ممنوع
اتحمِّلت يا ناس فوق طاقتي	واتغرَّبت ف عزِّ براءتي
كتبوا لكل الناس عنوانها	وانا كتبولي غريب ف بطاقتي
تمن الغربة دفعته بدمِّي	بسنين فيها بعيد عن أمِّي
واما نويت ارجع علشانها	رحلت لاجل تزوِّد همِّي
مين في الغربة يا ناس مبسوط؟	مين على راحته مش مضغوط
مين يتحدَّى يقول مش خايف	إنُّه بعيد عن بلده يموت
يلي بتسعى عشان تتغرَّب	خدها نصيحة واوعى تجرَّب
كلها بدُقَّة ف بلدك واوعَى	من مشاوير الغربة تقرَّب

راحوا فين حبايب الدار؟

ولأن للغربة حالة شعورية خاصَّة، فكلماتها دائمًا تبقى عالقة بالأذهان، متردِّدة في الآذان، يتم استحضارها مع كل موقف من مواقف الغربة، وخير مثال لهذا الكلمات التي كتبها الشاعر حسين السيد وغنَّاها وديع الصافي، والتي تأتي فيما يشبه بكاء الأطلال عند الشعراء الجاهليين، فتبكي الكلمات هنا الديار وساكنيها وتشكو من خلوِّ الديار من أحبابها، وكيف تحوَّلت ليالي تلك الديار من نور إلى ظلام ومن فرحة إلى دموع.

تقول الكلمات:

يا دار يا دار يا دار

يا دار قوليلي يا دار

راحوا فين حبايب الدار

فين فين قولي يا دار

لياليكي كانت نور

يسبح في ضيه بحور

صرخة صدى مهجور

مرسوم في كل جدار

راحوا فين حبايب الدار

فين فين قولي يا دار

داري الدمع يا عين

داري داري داري

ما تزوديش الغيم

فيه رب اسمه كريم

ساعة المحن ستار

راحوا فين حبايب الدار

فين فين قولي يا دار

تذكرتي رايح جاي

العودة من الغربة حلم كل مغترب، ومهما كانت مرارة الغربة وقسوتها، فإنها تحلو عند العودة، فطعم العودة لا يقارَن، والأمل حيٌّ في القلوب لا يموت، فالتذكرة التي معه ذهاب وعودة، كما كتبها المؤلف محمد السيد وغناها الفنان حمزة نمرة، ويتناقلها الشباب المغتربون في غربتهم:

طعم البعاد صبَّار

والغربة ليل بهتان

يا قلبي يا موجوع

إيَّاك تكون قلقان

لو طالت المسافات

أنا والأمل إخوات

وتالتنا كان الليل

ده أنا ليَّا فيها النيل

وليها فيَّا الروح

ما اخترتش إني أروح

ما أنا جوعي كان كفران

ملعون أبوك يا طموح

آخرك تشوفلي كفيل

لكنِّي مش قلقان

تذكرتي رايح جاي

طعم البعاد صبَّار

والغربة ليل بهتان

يا قلبي يا موجوع

إياك تكون قلقان

أنا مش في بلدي عويل

لكنِّي مش بتشاف

زهرة سنيني عجاف

مع إن ليَّا عزيز

إفتوني في رؤياي

لمُّوا الأماني إزاي

حطُّوها ع الباسبور

أحلامي صبحت بور

ممنوع عليها الضي

لكنِّي مش قلقان

تذكرتي رايح جاي

التغريبة الفلسطينيَّة

عندما يكون في الغربة مزيج من الجنسيَّات، وتجد الجميع بلا استثناء يفعل الشيء نفسه، في المواقف ذاتها، فإنما يعني ذلك أنَّ هناك اتفاقًا في المشاعر واتِّحادًا في العواطف، وتماثلًا في التعبير عنها، أقصد بالطبع هنا التعبير بالأغنية التراثية عن مواقف الغربة، وما تنتجه من حنين وأشواق بكاء الوطن البعيد والعمر الضائع.

وتظل الغربة في فلسطين هي الأشهر بين العرب، وذلك بسبب ما تعرَّضت له البلاد من أهوال الاحتلال، مما اضطرَّ الكثيرين للاغتراب والبعد عن أوطانهم، وكان طبيعيًّا أن تظهر معاناة المغتربين ومشاعرهم، بل وقصصهم من خلال أغنيات التراث والفلكلور الشعبي، وبخاصَّة وأن كلَّ مغترب له قصَّة وكل قصَّة لها نهاية، وكل نهاية تثير المشاعر وتهيِّج القلوب، وتستدرُّ الدموع، لذلك كانت التغريبة الفلسطينية من أهم مصادر الإبداع في هذا الجانب.

يقول صديقي الفلسطيني: «نحن مصدر الإلهام لكل من أراد البحث في الغربة والحديث عنها، فغربتنا قديمة ومستمرة ومتنوِّعة، وبالفعل حين بحثنا في الأمثال الشعبية، وجدنا ذلك الكم الهائل الذي لم يتوفر لأمة من الأمم، ولم يقله شعب من الشعوب، وكذلك الأعمال الفنيَّة الأخرى، التي تحكي عن التغريبة الفلسطينية، وتكتب تاريخها بكثير من الدم والدموع».

يا ظريف الطول

فعلى سبيل المثال: تعَد أغنية «ظريف الطول» منذ عدَّة عقود من أهم وأشهر الأغاني الشعبيَّة الأساسيَّة التي تُردَّد دائمًا في المناسبات الاجتماعيَّة والوطنيَّة، وبخاصَّة في القرى، التي حمل أهلها هذه الأغنية معهم إلى مخيَّمات اللجوء في لبنان وكل مواطن الغربة، مع العلم أنَّ معظم مَن يتناقل هذه الأغنية لا يعرف من هو «ظريف الطول»، وذلك على الرغم من مرور عشرات السِّنين.

تناقل الأجداد هذه الأغنية منذ أيَّام الانتداب البريطاني في فلسطين، ويروي الأجداد قصَّة «ظريف الطول»، مؤكِّدين أنَّه شابٌّ فلسطيني كان يحمل اسمًا فلسطينيًّا، وكان طوله سببًا في أن يُطلق عليه اسم «ظريف الطول».

أقام هذا الشاب في قرية كان غريبًا عنها، وكان يعمل نجَّارًا عند شخص يُدعى (أبو حسن)، و كان يعطيه أجره كل أسبوع، ولكن لم يكن يعلم ماذا يفعل بالمال، وأجمع أهل القرية أنَّه كان ذا خُلُقٍ ولا يرفع عينه باتِّجاه امرأة، على الرغم من أنَّ فتيات القرية كُنَّ يحاولن التقرُّب منه، حتَّى إنَّ زوجة مختار القرية طلبت منه أنْ يصنع لها خزانة كي تلفت نظره للزواج بابنتها، كما أنَّ زوجة خطيب المسجد صنعت عنده صندوقًا خشبيًّا للملابس وحدَّثته عن ابنتها، وحتَّى الخطيب لَمَّح إلى الموضوع في خُطبة الجمعة من دون فائدة، لأن «ظريف الطول» لا تعنيه هذه الأمور.

تحكي الرواية أنَّه في يوم من الأيَّام هجمت إحدى العصابات الصهيونيَّة على القرية واستُشهد ثلاثة شبَّان، وفي اليوم الثاني غادر «ظريف الطول» القرية، وعاد بعد أربعة أيَّام ليلًا دون أن يراه أحد، حتَّى عادت العصابات بعد شهر لتقتحم القرية، حينها قام «ظريف الطول» بتوزيع خمس بنادق على الشبَّان كان قد اشتراها من ماله الخاص، وتمَّ قتل ستة أشخاص من العصابات، وفي اليوم التالي باعت النسوة ما يملكن من جواهر وذهب لشراء البنادق بثمنها، وعند عودة العصابات للأخذ بالثأر، اندلعت معركة كبيرة في كروم التفَّاح، واستشهد عدد كبير من أبناء القرية، وفي الوقت نفسه سقط عدد كبير من أفراد العصابات.

وعندما قام أهل القرية بجمع جثث الشهداء وجدوا أنَّ «ظريف الطول» قد اختفى، ولم يجدوه بين الشهداء، كما أنَّه لم يكن كذلك بين الأحياء، وأجمع أهل القرية على أنَّه قاتَل بشراسة وقتل أكثر من (20) شخصًا من أفراد العصابات، وأنقذ بعض شبان القرية، لكنه لم يظهر بعد المعركة.

ومرَّت الأيَّام، وصار «ظريف الطول» أغنية القرية:

يا ظريف الطول	وين رايح تروح
بقلب بلادنا	تعبَّقت الجروح
يا ظريف الطول	وقف تاقولك
رايح عالغربة	فلسطين أحسنلك

ويقال: إنَّه بعد سنوات عدَّة تمَّت مشاهدة «ظريف الطول» مع الثوَّار في يافا، والعديد من الناس أقسموا بأنهم شاهدوه مع المقاومة في بورسعيد بمصر، وآخرون شاهدوه في غزة، ومنهم من قال إنَّه كان في بيروت إبَّان اجتياح 1982، ليتَّضح أنّ «ظريف الطول» هو رمز لكل مقاوم فلسطيني، وبقيت الأغنية تُردَّد حتَّى يومنا هذا بكلمات يختلف بعضها ما بين أغنية وأخرى.

وتحكي رواية أخرى أنَّ القصَّة تعود لعلاقة حبٍّ فوق الوصف بين شابٍّ وشابَّة فلسطينيَّين، واسم الفتاة «عناة»، أمَّا الشابُّ فلم يكن اسمه معروفًا، لكنّه كان معروفًا بأنَّه وسيم وطويل القامة، ومن هنا جاء اسم «ظريف الطول».

وتضيف الرواية أنَّ «عناة» تمنَّعتْ عن الخُطَّاب، وحصلت الوشاية وقالوا لأهلها عن قصَّة حبِّها، فحبسها أهلها في البيت بالقوَّة، وقاموا بأذيَّة «ظريف الطول» كي يبتعد عن ابنتهم.

ولما زادت وحدة «ظريف الطول»، ومرضت «عناة» في محبسها قرَّر «ظريف الطول» الرحيل عن القرية، كي ينقذ محبوبته.

وحينما علمت «عناة» بخبر رحيله ازداد ألمها، فأرسلت مع صديقتها تقول له:

يا ظريف الطول	وقِّف توا اقولك
رايح عالغربة	وبلادك أحسنلك
خايف يا المحبوب	تروح وتتملَّـك
وتعاشر الغير	وتنساني أنا

فغضب «ظريف الطول» من «عناة»، لأنَّها ظنَّت أن سبب رحيله هو سعيه ليكون مع غيرها، وأنَّه لم يضحِّ لأجلها، فأرسل لها مع صديقتها يقول:

«كيف أنساك بعد كل هالحب والمعاناة ومرارة الفراق؟ أنا رحلت كي أريحك، وحتَّى يطلق أهلك سراحك بعدما يتأكدون من رحيلي».

«أنا راح أضحِّي بحياتي كرمالك، وأنا ما هجرتك لأتملَّك أراضي في بلد غير بلدنا (قريتنا)، أنا هون جابتني أمِّي وهون كبرت وهون حبِّيتك على محبَّة أرضي، أنت والأرض وجه واحد بالنسبة إلي، أنا ما ممكن أحب غيرك، لأني ما ممكن أخون أرضي».

وتقول الرواية إنَّ ظريف الطول رحل عن قريته وحيدًا مثقَل القلب، وبدأ يتنقَّل من قرية لأخرى، ورفض أن يتملَّك بيتًا، أو يعاشر زوجة، وفاءً بوعده لـــ «عناة»، أمَّا هي فخرجت من محبس أهلها، وخرجت معها الأغنية.

يا ظريف الطول	وقف توا اقولك
رايح عالغربة	وبلادك احسنلك
خايف يا ظريف	تروح وتتملك
وتعاشر الغير وتنساني انا	

يا ظريف الطول	يا سن الضحوك
يلي رابي في	دلال امك وابوك
يا ظريف الطول	يوم الي غربوك

شعر راسي شاب والظهر انحنا

يا ظريف الطول	متغرب على القوم
لا تبعد عنا	وتحط علينا اللوم
انشا لله بترجع	بترجع عالكروم

نحصد القمحات ونجمع شملنا

يا ظريف الطول	غايب عن الاوطان
وغيابك عنا ملا	القلب احزان
ارجع لامك	وارجع للحنان

ما تلقى الحنية غير في بلادنا

يا ظريف الطول	حلو يا دلوع
والي يطيح البير	يحسب للطلوع
احنا اتفرقنا	وعالله الرجوع

والمفرق والمجمع ربنا

يا ظريف الطول	مالي ومالكم

وابتليته بالهوى	وش حالكم
وان كان عشرة غير	نا طابت ليكم
خبرونا تندبر حالنا	

هذه عيِّنة من القصص التي حوَّلت الحكايات الشعبية والوقائع والأحداث الوطنية إلى أغانٍ تراثية ارتبطت بشكل مباشر بثقافة فلسطين، أو غيرها من الدول العربية. ويحتفظ التراث العربي بقصة لكل أغنية من أغاني الفولكلور، تحديدًا في بلاد الشام، أي في سورية وفلسطين ولبنان والأردن.

اتغربنا وكان اللي كان

وكثيرًا ما أجد زملاء العمل والأصدقاء من إخواننا الأردنيين يدندن أحدهم بتلك الكلمات، التي تؤثر فينا بمعانيها التي لا تختلف عن معاني غيرهم، ولكن أكثر ما يميزها هو طريقتهم في غنائها، إنَّها أغنية تراثية أردنية شهيرة، لا يُعلم مؤلفها ولا ملحنها، لكنها تحكي عن الغربة، على لسان المغترب، الذي يوضح فعل الغربة فيهم وكيف سرقت منهم أعمارهم، ويبيِّن أنهم لم ينسوا بلادهم بل يزداد شوقهم إليها حتى كاد أن يذهب بعقولهم.

اتغربنا وكان اللي كان	ولعبت الغربة فينا
وأبعدتنا عن الأوطان	وخلتنا بلا مينا
والوطن عايش معنا	لو ختيرنا وشيبنا
والوطن عايش معنا	لو ختيرنا وشيبنا
ما بننسى ريحة البلاد	وديرتنا واهالينا
في الغربه اتحمّلنا كتير	وخدنا ع الشقا بكير
والطيارة لما تطير	تولِّع وتحرق بينا
اتغربنا وكان اللي كان	ولعبت الغربة فينا

وابعدتنا عن الأوطان	وخلتنا بلا مينا
يالغربة حنِّي ومنِّي	كتر الشوق مجنِّني
يالغربة حني ومني	كتر الشوق مجنني
سرقتِ عمري منِّي	وسهينا ولهيتيني

وانتشرت من المغرب العربي، وتحديدًا من الجزائر، كلمات كتبها وغناها دحمان الحراشي، وتحكي عن معاناة المهاجر في ديار الغربة من التهميش والإقصاء، والرغبة في العودة، وفيها النصيحة بالعودة إلى الوطن، لأن الغربة ديار هجرة وليست حلًّا صحيحًا ولا طبيعيًّا لأولادنا، ويتحدَّث بلهجته الجزائرية الجميلة، التي قد يصعب على البعض فهمها:

ينادي على المسافر الموجود في بلد الغربة أين أنت ذاهب؟ مهما تذهب فإنَّ مصيرك هو الرجوع لبلدك لعائلتك ولأسرتك.

هل تظن نفسك أذكى الناس؟ قد اغترب كثيرون قبلك، وظنوا الحياة هناك، لكنهم كانوا غافلين مثلي ومثلك وندموا.

وأنا سافرت كثيرًا ورأيت كثيرًا، وقابلت الكثير من الناس، ولم تكن فرص العمل متاحة دائمًا.

- شعال ضيعت أوقات وشعال تزيد ما زال تخلي:

وهذا المهاجر الذي ضيع من وقته الشيء الكثير وما يزال يضيع في وقته، ويخشى أن يعود فارغ اليدين، وكيف يلاقي الأهل ساعتها؟

- يا الغايب في بلاد الناس شعال تعيا ما تجري بيك وعد القدرة ولَّى زمان وأنت ما تدري:

فالمغترب في بلاد ليس من فيها أهلك ولا عشيرتك ولا قبيلتك وقد لا يكونون حتَّى من دينك، فإلى متى تجري وراء لقمة العيش؟ فرزقك يبحث عنك كما تبحث أنت عنه.

ثم ينتقل في وصف حالة المهاجر بالحزن الدائم، والسهر المستمر، وكل هذا لا ينفع، ثم يبشره بأن الشدَّة لا تدوم وأن بعد العسر يسرًا.

يا من عزمت على الغربة، قبل أن تسافر استمع لنصيحتي قبل فوات الأوان، انظر جيدًا لمصلحتك ولا تجعل حياتك عرضة للمساومة، لا تجعلها تُباع وتُشترى فتخسر.

أيها النائم الغافل، لقد جاءني خبرك، وعلمت قرارك بالسفر مثلما فعلت أنا قبلك، وأراك سوف تسلك نفس الطريق، وفي النهاية ستعود، ستعود شابًّا وتبني، أو تعود كهلًا تجترُّ مع أصحابك الذكريات

وتتحسر عليها، والفارق بينكما أنك تغربت وحُرِمت، وهم أقاموا ولم يغادروا، وفي النهاية مصيرك التراب.

يا الرايح

يا الرَايح وين مسافر	تروح تعيا وتولي
شحال ندموا العباد	الغافلين قبلك وقبلي
يا الرَايح وين مسافر	تروح تعيا وتولي
شحال ندموا العباد	الغافلين قبلك وقبلي
شحال شفت البلدان	العامرين والبر الخالي
شحال ضيعت أوقات	وشحال تزيد ما زال تخلي
يا الغايب في بلاد الناس	شحال تعيا ما تجري
بـِيك وعد القدرة ولَّى	زمان وانت ما تدري
يا الرَايح وين مسافر	تروح تعيا وتولي
شحال ندموا العباد	الغافلين قبلك وقبلي
يا الرَايح وين مسافر	تروح تعيا وتولي
شحال ندموا العباد	الغافلين قبلك وقبلي
يا مسافر نعطيك وصايتي	ادّيها على بكري
شوف ما يصلح بيك	قبل ما تبيع وما تشري
يا النايم جاني خبرك	كيما صرالك يصرى لي

هكذا راد وقدر في	الجبين سبحان العالي
يا الرَايح وين مسافر	تروح تعيا وتولي
شحال ندموا العباد	الغافلين قبلك وقبلي
يا الرَايح وين مسافر	تروح تعيا وتولي
شحال ندموا العباد	الغافلين قبلك وقبلي

ومن التراث السوداني

وكذلك تناول التراث السوداني موضوع الغربة، فالسودان الحبيب من البلاد العامرة بالمواهب والإمكانات البشرية الهائلة، والعقول اللامعة، لكنَّ الظروف الاقتصاديَّة للبلاد على مر السنوات تجبر الكثيرين منهم على البحث عن فرصة سفر، وتدفعهم للغربة، وهذا بالطبع ما يحرِّك المشاعر في اتجاهات تنتجها تلك الغربة، بين شوق للبلاد والأهل والأحباب، ولكل جميل في البلاد، وبين الشكوى من الغربة ومرارتها، وقسوتها عليهم، ومفارقة النوم أعينهم.

ويتمنَّون العودة للبلاد، واسترجاع الماضي الجميل، حتَّى وإن قلَّت فيه الأرزاق، فسماع أصوات الأحباب وكلامهم الطيِّب أفضل من كل أموال الدنيا، وكلُّهم يعرف أن الأمور في النهاية تصير إلى العودة والإقامة في الوطن، ولا تكون آثار تلك الغربة إلا المعاناة والألم والتعب.

نار البعد والغربة

نار البعد والغربة

شوق لأهلي والصحبة

شوق لكل جميل في الحي

شوق للشينة لو صعبة

بين اليقظة والأحلام

بين أجفان تقول للنام

أريت النوم يزورني اليوم

أنوم لو ليلة في كل عام

آه بتطلع بدمع العين

زفرة بتشعل أنفاسي

آه بتداوي فينا حنين

ولا زفرة بتجيب ناسي

لو ذكرى تهدي حنان

لو إنسان صبح قصة

أنا القصة يا أم درمان

الله يلعن بي الغربة شو سوت بحالي

مره ومرمرتلي قلبي وسرقت مني الغالي

قلنا بنسافر سنتين وبنرجع على الضيعة

ضاع العمر وبعدوا حسين ما خلص هالبيعة

ويلي ويلي ويلي الله يعين الي عندوا عيله

عايش على الشمعة مهموم عم يتحمم بالكيلة

دلي دلي يا تعتيريى ويا ديلي

شو صاير بي هالناس كلوا عايش بالقلة

شو مشتاق لامي وبي واختي تكوي تيابي

اسمع شي كلمة حنية تنسيني عذابي

سافر شب وارجع شايب تا ارتاح شويه

ارج ما بلائي الحبايب شو صعبة يا خيي

هيه هيه هيه هالدنيا هيه هيه

بيجي ناس بتمشي ناس بضلها هيه هيه

يمي يمي يمي مش قادر انسى همي

متل خيال بعمري صار وصاير عمي يمش بدمي

ما بدي هالغربة راجع على الضيعة لائوني

بدي اركع بوس ترابا هالأرض الحنونة

عيش بالدنيا واتهنا وضلك عايش راضي

راحت رجعت طلعت نزلت راح تزعل عالفاضي

جنة جنة حجة هالدنيا والله جنة

اسمع مني وريح هالبال وضلك عايش متهني

عني عني عني يا غربة حلي عني

فرئتي كل الاحباب واخدتي الغالي مني

والمواطن اليمني مرَّ بكثير من الأحداث التي خلَّفت مرارات عديدة، أجبرت الكثيرين منهم على الغربة والبحث عن لقمة العيش في بلاد أخرى، لذلك وُجدت الأغنية التي تتناولها الألسنة لتعبر عن حال غربتهم، وتحكي مشاعرهم إزاء تلك الغربة، مثل تلك الأغنية التي يتكرر فيها ذكر صعوبة الغربة وأحوالها، وانشغال البال بالوطن والحنين له، ذلك الوطن –على الرغم مما فيه- لا يشبهه أيُّ وطن.....

صعيبة عيشة الغربة صعيبة

سرح من موطني والعين تدمع

وعقلي منشغل يطرح ويجمع

ويخطي القرب والمبعد يصيبه

صعيبة عيشة الغربة صعيبة

حنين القلب زايد على المقرَّر

وشوقي للوطن دايم مكرَّر

وأرضي مبعدة ما هي قريبة

صعيبة عيشة الغربة صعيبة

بلادي حبّها وأعشق هواها

ولا أشوف السعوديَّة كما ها

يعين الله من فارق حبيبه

صعيبة عيشة الغربة صعيبة

ظروفي قاسية جارت عليًّا

رمتني في البلد والخاسكية

غريب الدار في الأرض الغريبة

صعيبة عيشة الغربة صعيبة

مقل ماشي معي والقلب سالي

وسيع البال ما خط شي ببالي

وموّل المال يسكر من زبيبه

صعيبة عيشة الغربة صعيبة

وهذا شابٌّ يمني يتحدث في هذه الأغنية عن معاناته، فما يحدث معه وأضرابه من اليمنيين لم تره عين قبل ذلك، ونشعر هنا بتوتُّر المغترب وتردُّده بين المعاني حتى نظنه متناقضًا، فهو غريب لكنه يذكر أن الغربة هي غربة الروح لا غربة الأوطان، ويؤكد أنه مؤمن بالله وفي معيَّته، وعلى الرغم من ذلك فاليأس لا يفارقه، حتى صارا صديقين لا يفترقان، والأمر لا نراه تناقضًا، إنَّما هو تصوير لحالات المغترب في أوقات مختلفة ونفسيات متعدِّدة.

غريب الدار

ضايع غريب الدار

ما أدري أرحل وين

اللِّي جرالي وصار

ما شفته أي عين

أمشي أنا ودربي

مالي سوى ربي

والدمع من قلبي

ما تمسحه ايدين

ضـــايع غريب الدار

مثل اليتيم اشوف

حالي بلا خلان

ومنك ابيك معروف

يا دنيا أو إحسان

شيلت الألم بدري

حتى انحنى ظهري

يا دنيا من يدري

شو اللي يجي بعدين

ضايع غريب الدار

الغربة غربة روح

مو غربة الأوطان

وعمر الوطن ميروح

ويضيــع بالنسيان

وأنا غربت شمسي

وفي دنيتي منسي

في الغربة أنا ويأسي

صرنا أعز ثنين

الفصل العاشر

قمر الغربة لا يُضيء

القمر آية من آيات الله، ذكرها في كتابه وجعله معجزة من معجزات النبي ﷺ، وهو رمز استخدمه الأدباء لوصف جمال المرأة، مع أنه في واقع الأمر جسم معتم يستمدُّ نوره من الشمس، والقمر رفيق العشَّاق ليلًا، فهو الأنيس في سهرهم، وهو المستمع لمناجاتهم، وفيه يسكن وجه الحبيب.

لكن لماذا يختلف قمر الوطن عن قمر الغربة؟ وكأن مصير القمر دائمًا أن يكون انعكاسًا لأضواء غيره، ففي الوطن كم نسمع وكم نلقى من يسهرون مع القمر ويعدُّون النجوم! لكنَّنا في الغربة لم نسمع عن أحد يفعل هذا، ولم نلقَ أحدًا شاحب الوجه محمرَّ العينين، لتسأله عن السبب ويجيبك: «كنت سهران مع القمر»، بل قد تكون الإجابة: «إرهاق العمل، أو تعبت ليلًا ولم يكن معي أحد وخشيت من الموت وحيدًا، أو مشكلات البيت والأولاد، أو الديون التي غرَّبتني».

فالنظرة للقمر غالبًا تتبع الحالة النفسيَّة والمزاجيَّة والعاطفيَّة للشخص، لذلك نجد ذلك الشخص الذي لم يرَ في قمر وطنه إلَّا ما يذكِّره بمحبوبه، والتشابه الواضح بين القمر والمحبوب، بل وغيرة القمر من محبوبه الذي يطالب بحقه في الجلوس مكانه، نفس الشخص هو الذي لا يرى في غربته شيئًا من ذلك في القمر ذاته، ولا يراه سوى قمر يخرج ضئيلًا فتُعرَف به بدايات الشهور، ويخرج ليلًا ليعكس بعض الضوء الذي لا يكفي لأن ينجز تحته أعماله ويمارس أمور حياته.

هذه النظرة المختلفة للقمر بين الوطن والغربة تنسحب على كثير من الأحداث واختلاف نظرة المغترب إليها، فكما أن القمر الذي يراه في وطنه هو نفسه الذي يشاهده في غربته، بينما النظرة تختلف من الوطن إلى الغربة، كذلك كثير من الأمور التي يعايشها في وطنه، ثم يعايش مثلها في غربته، وتكون النتيجة في النفس مختلفة.

وكما يهلُّ القمر في الوطن والغربة على حدٍّ سواء، تهلُّ على الغريب أحداث لا تتغيَّر حقيقتها بين الغربة والوطن، لكنَّ تأثيرها ومردودها في النفس يتباين تباينًا شديدًا، فما يكون دافعًا للفرحة العارمة، تشحب تلك الفرحة ويختفي لمعانها في الأعين، وتختلط بكآبة تحدث نتيجة الحرمان من معايشة تلك الفرحة، أو يمرُّ كحدث عادي إلَّا من بعض المظاهر لزوم المشاركة.

وما كان أصله الحزن الجارف لا يأخذ حقَّه من الحزن، بل يصير حدثًا داعيًا للتأمل والتفكير، مع شعور بالقهر وقلة الحيلة في موقف كان يجب عليه أن يشهدها، ولا يمنع هذا من عبوس الوجه والبكاء والدموع التي تفرِّج عن النفس بعض آلامها.

وليس المقصود هنا أن الغريب قد فقد الإحساس بالفرح والحزن، بل هو يعيش الحدث بما تقتضيه الحالة حزنًا أو فرحًا، لكنَّ الغربة أفقدته الطعم الأصيل لكلٍّ منهما، وأبدلته بهما طعما لا مثيل له، تختلط فيه المرارة بالقهر بالندم بالذكرى، طعمًا يجعله يكره الغربة أكثر وأكثر، فكل حادثة أو مناسبة لها في نفس الغريب ما بعدها، وهو المقصود هنا.

فالأصل في الأفراح وميلاد الأولاد ونجاح الطلاب وافتتاح مشروع لقريب وحبيب، الأصل فيها أنها تفرِح وتسعِد النفس، وجميعنا جرَّب الشعور بها في وطنه، فالأعراس مثلًا مناسبات يتجمَّع فيها الأهل والصحبة والأحباب، يأتي البعيد ويشارك القريب، تكون الفرحة والابتسامة وتبادل التهاني لأصحاب الفرح، والتمنيات بأفراح مثلها للضيوف والمهنِّئين والمشاركين، والعُرس ليس يومًا واحدًا، بل هو موسم يتمُّ على أيام.

فالخِطبة لها مراسمها وأجواؤها وتجمعاتها، حيث المرح والفرح والأمل في بيت جديد يشرعون في بنائه، والتعارف مع عائلة أخرى، وكمية من الاحتفال والمزاح مع العريس وأهله ووالده الذي يداعبه أصدقاؤه بأنَّها (راحت عليه والأولاد كبَّروه).

ثم عقد الزواج وتحديد وقته، وتوجيه الدعوة للأقارب والأحباب، ثم تجهيز ما يلزم حسب مكان العقد، إن كان في المسجد أو في دوَّار العائلة، يعقبه بقليل تحديد الزفاف وإجراءاته، وكل مل يحيط به حتى تكون الليلة مما يتحاكى به الناس.

مناسبة بكل تفاصيلها تمر مضيئة مبهجة للنفوس، وهي نفس المناسبة التي تمر على المغترب فيفرح من قلبه، يفرح فرحة عابرة لا يستطيع التعبير عنها وسط أصحابها، ولا تظهر ابتسامة قلبه وفرحة عينيه وبسمة شفتيه في مكانها.

نعم، قمر الغربة لا يضيء، يبقى ناقصًا ضوؤه الطبيعي اللامع، وسرعان ما تنقلب لحظات الفرح -التي حاول استمرارها- إلى إشفاق على النفس من تعب الغربة وتنغيصها، وحرمانها للمغترب من أخص اللحظات، بل لعلها اللحظات التي كان ينتظرها من أعوام طويلة، وكان يقسم أن يفعل ويفعل فيها مجاملة وردًّا لجميل، أو إظهار لفرحة صادقة وحب ملك القلب، يرى الجمع فيحزن لوحدته، يشاهد انفعالاتهم فيكره صمته ووجومه، يسمع ضحكاتهم فيشفق على نفسه من ابتسامات مجاملة، تبدو أمامه فرحتهم صادقة معلَنة، فيحاول إخراج فرحته الأكثر صدقًا ولا يجد لذلك مجالًا.

حتَّى الحزن ومواقفه لا تجد للقمر فيه ضوءًا مثلما هو في الوطن، في الوطن يكون متابعًا الأحداث، يعلم بأحوال أهله وأحبابه وذويه، قليلًا ما يفاجئه خبر وفاة، فالتواصل دائم وزيارات المرضى وكبار السن لا تنقطع، والأخبار عنده لحظة بلحظة، وعند علمه بخبر وفاة أحدهم يبكي من قلبه فيجد من يعزيه، ويقوم هو بتعزية غيره وتثبيتهم وتذكيرهم بالصبر، يعيش مع الجميع ملحمة ترابط وتوحُّد في المشاعر وإعلان الحزن والحداد، يقيمون مع الميِّت ساعاته الأخيرة في بيته، لا يتركونه، يقرؤون القرآن ويجهِّزون

الغسل والكفن، يرسلون الشباب لإعلام الناس بالوفاة ومكان الصلاة والدفن، ملحمة يساهم الجميع في إخراجها بصفاء نفس ونبذ للخلافات واحترام للمتوفَّى.

الموت هو الموت في الوطن أو في الغربة، بقدسيَّته ومشاعره وواجباته، لكنَّه في الغربة يولِّد في النفس شعورًا بقهر الرجال، فإن مات غريب في غربته بكاه القليل، وحاولوا جمع الناس للصلاة عليه ودفنه، فهو غريب ليس له أحد، وإن مات حبيب في الوطن كان الخبر صاعقًا، والبكاء قاتلًا والدموع جامدة في الأعين، والعزاء قليلًا، فقليل من يعزِّي النفس، والأمرُّ من هذا أن ليس فيهم من أصحاب المصاب، من يشاركه المصاب ويتبادل معه العزاء، فهو يوقن بأنَّ النائحة المجامِلة ليست كالثكلى، ويقطع قلبه أنَّ أحبابًا له يبكون الآن وكان هذا دوره أن يمسح دموعهم، ويربت على أكتافهم ويمسح على رؤوسهم، ويطمئنهم بوجوده، ويعزيهم بجواره.

مات الصديق الحبيب، ورفيق الطفولة وشريك أحلام الشباب، يأتي الخبر صاعقًا كأنني كنت أستبعد نهاية حياة أحد من أحبابي، كنت دائمًا أتخيلهم عند موتي أنا، كيف سيبكونني؟ وكيف سيخلفونني في أهلي وأبنائي؟ وما الصدقات التي سيداومون عليها من أجلي؟ هل سيكون نسياني سريعًا؟ لا أظنُّ ذلك، فما بيننا من رباط يستحيل معه النسيان، أعلم أنهم سيدعون لي كل صباح ومساء، لن تفارقهم ذكراي في كل تجمُّع وفي كل موقف وحتَّى عند كلِّ طعام.

مات الصديق الأخ قبل أن أشبع من رؤياه ثانية كما تواعدنا عند سفري، مات قبل أن أحتضنه وأثق أنه كان سيبكي وكنت سأضحك من رقة قلبه وأمطار عينيه، أتخيل لقاءنا لو كان، كان سيقول لي كلماته الجميلة التي ترطِّب القلوب لأنها صادرة من القلب الرطب بحبِّ الله وذكره، "الأيام من غيركم صعبة يا حبيب"، هو من كان سيقولها قبلي، ولكنَّها تتردَّد داخلي منذ أوَّل يوم فارقته فيها، كان سيصرُّ على استضافتي على الغداء في أوَّل جمعة بعد عودتي، وكنت سأجد كلَّ الأحباب، فعنده مستقرهم ومقامهم.

مات قبل أن تشبع القلوب، وتكتحل الأعين، وتهنأ النفوس بلقاء تمنيناه طويلًا وأعددنا له العدَّة في كلِّ مكالمة بيننا، ما أشد الوجع! وما أمر الخبر! وما أقسى الغربة حين تفقد حبيبًا لم تستطع أن تودِّعه!

مات العمُّ الحبيب القريب للنفس، الذي كان يدفع عنا الكثير كأنَّه الموكَّل بذلك، ويتمنَّى لنا الخير كأنَّه الأب، حادثت أبناءه من أيام لأنه كان في غرفة العناية المركَّزة، من مرض فاجأه وفاجأنا، فأصابه وأقعده، وأعجزنا معه، كنت على أمل أن يفيق وأستطيع محادثته، كنت واثقًا أنه سيسَرُّ من الكلام معي، وأنا أعرف كيف أدخل الفرح على قلبه، كنت أمنِّي نفسي لو أفاق أن أمازحه بالمعهود بيننا، "عروستك عندي يا حاج، على كيفك مثلما طلبت قبل ذلك"، وأتوقَّع ردَّه وهو يضحك: "وهل طلبت منك شيئًا؟ الحاجة بجواري الله يكرمك، لن أجد مثلها في الدنيا كلها، كلِّمني بعد أن تذهب الحاجة"، سيناريو توقَّعته ولن يحدث لأنه مات ولن يرد عليَّ مهما حاولت، القهر بعينه شاخص بيننا حين يموت من تترقَّب شفاءه وتنتظر لقاءه.

مات العمُّ دون أن أراه، وذهبت الخالة حبيبة أمي من غير أن أقبِّل يدها، وقضى الشيخ الذي كنت أحفظ عنده القرآن في صغري قبل أن أتمكن من احتضانه وإهدائه العمرة كما كنت أتمنَّى، ورحل عن دنيانا الأستاذ صاحب الفضل علي وعلى أجيال كثيرة وفاتني الجلوس إليه والمزاح حول ذكريات الفصل والصحبة، ومات رفيق العمل وزميل الدراسة الذي كنت أبحث له عن عمل معي وغربة مثل غربتي، لكنه اختار غربة أخرى كلنا إليها صائر، ومات ورحل وقضى كل شيء في الغربة.

وفجعني خبر أحدهم، كان لا يظن نفسه يموت يومًا، حقيقة لم أكن أحبُّه على الرغم من أنَّني لا أبغضه، كرهت أفعاله وظلمه والباطل الذي يسير في ركابه، لكنَّ الغربة علَّمتني أن أسامح، فلا شيء يستحقُّ الخصام والقطيعة، كنت قد جهَّزت نفسي أن أجبرها على السماح بلقائه عند عودتي في الإجازة، أعلم أنها لن تكون صافية له، لكنها محاولة للصلة والغفران، غفر الله له، مضى قبل أن ألقاه.

باختصار: الغربة تفقِد كل مناسبة طعمها فرحًا كانت أو حزنًا، وتحيل مذاقها إلى مذاق باهت غريب، مثل أن نتخيَّل الطعام وقد جمع مذاقه بين الحموضة والحلاوة والملوحة والمرارة في آنٍ، وأشد أوقات وجود هذا المذاق حين يتمنى المغترب لو ترك كل شيء وعاد ليكون في وطنه في ذلك الموقف، وهو يعلم أن ذلك صعب، وحتَّى لو حدث فإنَّه سيكون متأخرًا كثيرًا عن وقته المطلوب.

الفصل الحادي عشر
الغربة في الوطن

> **يا غُربَة الأوطان يا ظُلمة اللَّيل الحزين**

هل من الممكن أن يشعر الطفل باليُتم في وجود أبويه؟ هذا السؤال يدور في العقل حينما يسمع أحدنا هذه الكلمة «الغربة داخل الأوطان»، فالطفل ينتفي عنه الوصف باليتم إن كان الأبوان حاضرَين، ولكنَّ كثيرًا من الأبناء يتملكهم هذا الشعور ويسيطر عليهم، إن كان وجود الأبوين وجودًا صوريًّا بالاسم فقط، يتساوى فيه وجودهما مع عدمه، فإن كان الأب قاسيًا دائم العبوس، لا يظهِر لأبنائه ما يدلُّ على حبِّه لهم، ولا يصدر منه سلوك فيه أي لمحة من حنان أو عطف أو إشفاق نحوهم، فلحظة وجوده هي أتعس أوقات أطفاله، ودقات يده على الباب قادمًا هي الكابوس القادم، وحين تكون الأم مهمِلة لا تهتم بشيء من حياة أبنائها، ولا يشغلون أي حيِّز من تفكيرها، لا تحنو عليهم ولا تدفع عنهم أذى ولا يتمعَّـر وجهها حزنًا لضرٍّ يصيب أحدهم، والأدهى من ذلك حين يرى الأبناء الحب والعطف والحنان الصادر من الوالدين لآخرين غيرهم –ليسوا أبرَّ منهم ولا أفضل ولا أنجح.

هنا يشعر الأبناء أنهم أيتام يفتقدون الحضن والسند والاهتمام، وتمثل لهم كلمات (الأسرة والانتماء والأب والأم) سياطًا تكوي ظهورهم كلَّما تطلعوا لشيء منها، وبسبب هذا الشعور الطبيعي قد يوصفون بخيانة الأسرة وعدم تقدير النعمة التي يتنعمون فيها.

ليس هناك شكٌّ في كون الإنسان محبًّا لوطنه، لأنه أرض ذكرياته ومشاعره وديوان حياته، وأنه لا أحد يرغب في أن يترك ذلك الدفء في وطنه ويستبدل به صقيع الغربة أو سعير مجهولها، يترك من عَرفهم ونشأ بينهم إلى أناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ولا يجمعه بهم أي روابط، لا يفعل إلا إذا كان الوالدان عاقين مهملين يدفعان أبناءهما لترك الأسرة والرحيل ولو إلى الجحيم.

كذلك الوطن إن لم يكن لأبنائه كما يجب، فحبُّ الوطن غريزة وفطرة مجبول عليها الجميع، يقتلها إهمال ذلك الوطن أولاده، وقسوته عليهم، وتفضيله الغرباء في كل خير متاح، وبخله عليهم وعدم توفير مصدر للعيش الكريم، فيضع أبناءه بين اختيارين كلاهما مرٌّ: بحث عن عيش كريم في الغربة بعيد عن الوطن، أو الرضا بحياة قاسية مهينة داخل الوطن، ولأن أصل الحياة الكريمة هو حفظ المرء كرامته، واستغناؤه عن الناس، وعدم قبوله بالذلَّة، فقد حسمها سيدنا علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وقالها

صريحة: «الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة»، فماذا ينفعه من مكونات الوطن إن عاش ذليلًا محتاجًا وقد ضاقت نفسه بضيق الحياة حوله، لذلك قال الشاعر:

الفقر في أوطاننا غربة	والمال في الغربة أوطان
والأرض شيء كله واحد	يخلف الجيران جيران

إن الوطن الذي لا يتيح لأبنائه مستلزمات العيش الكريم، وينفي عنهم الفقر والعوز، ويقصُر العلاقة بين الوطن والمواطن في واجب المواطن، وعدم اشتراطه الحصول على حقه، فليس من العدالة أبدًا في أي وطن أن يتغنى أثرياؤه بشعارات جوفاء فارغة من المنطق وبعيدة عن العقل، مثل ألا تَقُلْ ماذا أعطانا الوطن؟ بل قُلْ دائمًا ماذا سنعطي نحن لهذا الوطن؟ إنها أغاني الأثرياء وسارقي الأوطان، فكيف بمن لا يجد قوت يومه وما يسدُّ به جوعه وحاجات أسرته، وكيف بمن لا يجد الحدَّ الأدنى من العيش الكريم، وكيف بمن يعاني أشدَّ المعاناة حتى يخطو خطوة واحدة في سبيل تكوين أسرة؟ كيف بهؤلاء جميعًا أن يعطوا بلا حساب ولا انتظار لحقوقهم؟!

نعم كما قالها رضي الله عنه: «الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة»، بل يصير الوطن سجنًا أكبر من أي سجن، وغربة تفوق كل غربة، وقيدًا لا تكسره الآلات والفؤوس، تصير مجمعًا للكآبة والضيق والألم والقهر.

حينما يكون الوطن هو المكان الذي تدفَن فيه الموهبة ويقتَل فيه الإبداع ويؤخَّر العلماء، ويهمَّش الشباب، بينما تعطى الصدارة لعديمي الكفاءة وفاقدي الموهبة وأنصاف المتعلِّمين والراقصين على الموائد، فترى خرِّيج الجامعة الذي يعمل في مهنة يدوية ليوفِّر لنفسه مبلغًا يعيل به نفسه ونفوسًا وراءه، حينما يخرج على المعاش من قضى عمره يبذل ويعلِّم ويعطي، فلا يجد غير قدرة الفول وعربة يدفعها أمامه لينادي على الناس ليشتروا منه ويوفر رزقًا يساعده في تجهيز بناته، كيف لمثل هذا أن يطلب منه أحدهم أن يعطي الوطن ولا يسأل عن حقِّه فيه؟

ألا يشعر بالغربة رجلٌ يعمل منذ عشر السنوات لتوفير ثمن شقة سكنية يتزوج فيها، وكلما وفَّر جزءًا زادت النفقات وارتفعت الأسعار، وبعد أن حصل على بغيته ذهبت مع العمارة كلها لصالح إنشاء مشروع يقولون عنه: مشروع قومي، دون أن يعوِّضوه عن شقاء عمره الذي بذله فيه.

كيف تنمو الوطنية والانتماء في نفوس أطفال لا يجدون ما يسترون به عوراتهم، ولا ما يسدُّون به جوعهم، ولا ما يتفاءلون من خلاله بمستقبلهم؟ يتجوَّلون بطفولة منتهَكَة يبيعون المناديل ليكتسبوا شيئًا يساعدون به أسرهم، كيف لهم وهم يرون أمثالهم ينفقون في دقيقة ما يكفيهم وأسرهم شهرًا؟ فيتساءلون في صمت عن العدالة والرحمة في قلب الوطن.

لماذا يفضِّل كثير من الشباب في البلاد الأفريقيَّة التعرُّض للموت غرقًا أو الاعتقال على الحدود؟ إنَّها غربة الأوطان التي يرونها أشد من الغربة المعروفة، لماذا غيَّر البعض صياغة الجملة فيقولونها هكذا:

"تعب الغربة ولا غربة الوطن"، يعلمون أن الغربة ألم وحزن وبعد وربما إهانة، ولكن غربة الأوطان أقسى وأشد.

لا يحتاج حب الوطن إلى هذا الكم من الأغنيات والمناسبات الوطنية والندوات والمهرجانات، فلو أُنفقت هذه الأموال على الشباب لصنعوا هم للوطن آلاف الأغاني ولكان في تحسُّن أحوالهم كلُّ الغَناء عن الندوات والمهرجانات، ولصار كل منهم مناسبة وطنية تسير بين الناس وتعلمهم حب الأوطان واقعًا.

لا يحتاج الشعور بالوطن وحب البقاء فيه إلى تلك الأصوات المبالَغ فيها على المنابر، ولا موضوعات الإنشاء والتعبير التي يفرضها المعلِّمون عساها أن تغرس ذلك الحب فيمن يكتبها، ولا يحتاج حبُّ الوطن إلى تخصيص حصة يسمونها (التربية الوطنية) تدعو نهارًا لحب الأوطان مَنْ يتم سحقهم ليلًا ويبيتون بلا عشاء ولا مأوى، وليست الوطنية في ملايين اللافتات التي تزين الجدران والشوارع ووسائل الإعلام.

يشعر بالغربة في وطنه مَن ضاع حقُّه في حياة كريمة، من يرى التهليل للقبض على سارق رغيف يتقوَّت به ليعيش (وهو مذنب بالتأكيد على الرغم من أنه مضطر)، بينما يرى البراءة لكبار اللصوص وسارقي الأوطان لعدم كفاية الأدلة.

الغربة في الأوطان قاتلة، تتوافق في بعض أعراضها مع غربة الخارج، وتختلف في بعض الأعراض، فيعاني الغريب في وطنه الشوق إلى وطنه الذي يتمنَّاه، يشتاق هو وأمثاله لوطن يحتويهم ويحنو عليهم، فيعطف عليهم صغارًا، ويستثمرهم شبابًا، ويكرمهم كبارًا وشيوخًا.

الفصل الثاني عشر

استراحة

غربة نعم... غربة لا

الاختلاف بين البشر سُنة في خلق الله، وما يزالون مختلفين، ومنه الخلاف في وجهات النظر حول الغربة، بين الحثِّ عليها أو التحذير منها، والغالب في ذلك أنه يخرج من انطباعات شخصيَّة وتجارب خاصَّة وظروف الناصح أو المحذِّر، التي يعمِّمها على غيره، ولكنَّها في النهاية تبقى نصيحة قيِّمة تنفع الكثيرين، فانتقِ منها ما ينفعك.

نعم... يرى الكثيرون أن السفر فرصة لا تعوَّض ومنافعها متعدِّدة، وبخاصة في ظل الظروف التي يمر بها الشباب في هذه الأيَّام.

على كل حال هي وجهات نظر، والكثيرون يقولون بها، وكثيرًا ما يسمعها كل من عزم على الغربة، من بعض ذويه، وإن كانت بكلمات مختلفة عن كلام العرب قديمًا، فكثيرًا ما نسمع من المصريِّين: «رب هنا رب هناك... اقعد يا بني بلاش بهدلة... الرزاق موجود بلاش غربة... الغربة مرة يا حبيبي....»، وبالطبع في كل بلد نسمع كلامًا شبيهًا مع اختلاف اللهجة.

مشهد من مسرح الغربة

بعد كل ما سبق من الحديث عن الغربة لم يستطع ذلك الشاب تحديد موقفه، الغربة أم البقاء في الوطن؟

يبدأ المشهد بهذا المونولوج لشخص تسلَّط عليه دائرة الضوء، يسير إلى جوار صديق في مثل عمره، وفي يد الشاب مجموعة من الأوراق، ورقة فيها حساب الديون وأسماء أصحابها، وورقة من جريدة بها إعلان عن فرصة عمل بإحدى دول الخليج، وجواز السفر، وشهادة الجامعة وشهادة خبرة، وأوراق غيرها.

يقف متعبًا يحدِّث نفسه:

يا الله، ساعدني وألهمني الصواب، الأمر محيِّر والحكم فيه صعب، لا أستطيع أن أحسم أمري، أأذهب للغربة وألبِّي نداء متطلَّبات حياتي وبناء مستقبلي؟ أم أتمسك بوطني مهما كان وأقضي العمر فيه على الرغم من التحدِّيات الكثيرة؟ ليست المعركة بين عاطفة وعقل كما يكون غالبًا، بل في داخلي مناظرات وصراعات وحوارات بين عقلي وعقلي، وبين قلبي وقلبي، فعقلي يقول لي سافر، وعقلي يرفض السفر، وقلبي يميل للسفر ولكنَّ قلبي يحترق لمجرد التفكير في الغربة.

يحدِّث نفسه كأنَّه شخصان في جسد واحد:

نعم أنا أحتاج إلى السفر، من أجل أبي وأمي وإخوتي...

لا لا، يجب عليَّ البقاء، إنهم يحتاجون إليَّ إلى جوارهم...

نعم سأتحمل الغربة من أجلهم...

لا لا، بل سأترك الفرصة تضيع، فليست أهم عندي من قربهم ورعايتهم....

أسعى لأن يعيشوا حياة كريمة، وأذهب بهم لتحقيق أغلى الأماني لديهم؛ حج بيت الله الحرام...

لكن كيف أتركهم في أيامهم هذه؟ والعمر داهمهم، وهم لا يفعلون شيئًا دوني، أنا ابنهم الأكبر...

أنا في حيرة، من يشير علي؟ من يدلني على الصواب؟ ماذا أفعل؟ أسافر أم أبقى؟ ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

يرد عليه صديقه (نبيه):

– الحقيقة لا أدري ما سبب حيرتك، الأمور واضحة والموضوع لا يحتاج إلى استشارة مرة ثانية، ظروفك تحتِّم عليك السفر، أنت شاب ومتفوِّق في دراستك وتخصصك مطلوب، وبصراحة الفرصة لا تعوَّض، فالمقابل المادي كبير، ولو بقيت هنا عشرين سنة لن تجد عملًا بربع قيمته، تسافر سنتين تكوِّن نفسك وتحجِّج والدك ووالدتك وتجدِّد البيت، وبعدها يا عم لا تسافر.

ويكمل (نبيه):

– لكن المشكلة الوحيدة أن الغربة غير مضمونة، والعيشة خارج بلدك صعبة، نحن في غابة يا صديقي ولا أحد يرحم، ثم إن والديك كبيران في العمر، وهل تضمن وأنت تعمل على أخذهم للحج أن يبقيا على قيد الحياة؟ ممكن يموتوا وأنت بعيد عنهم، هم يحتاجون إليك أكثر من حاجتهم إلى الحج، أمَّا البيت فمن الممكن أن تجدِّده وأنت هنا بالتقسيط، أنا أعرف مقاولًا....»، وهنا قاطعه الشاب: "يا أخي بالله عليك اسكت، نقطني بسكاتك، زوَّدت حيرتي الله يخرب...".

ينتبه للجمهور قبل أن يكمل، ثمَّ يتوجَّه لهم بالحديث:

– آسف جدًّا، لم أنتبه لوجودكم، أعرِّفكم بنفسي، أنا مختار، وهذا صديقي وقريبي نبيه (نبيه جدًّا)، الذي لا أدري هل هو ابتلاء من الله أم تكفير ذنوب... أنا من هنا، من هذا الحي القريب، أنا اسمي وحالي قريبان، فاسمي مختار، ولو حذفنا النقطة فوق الخاء ظهر حالي، أنا متردِّد ومحتار حيرة شديدة، تخرَّجت في الجامعة منذ أعوام، أعيش في أسرة متوسِّطة الحال مع أبي وأمي وإخوتي، بعد الجامعة ظللت آخذ مصروفي من والدي عامًا حتَّى أكرمني الله بعمل ودخل يكفي شابًّا مثلي، بشرط أن يكمل حياته وحيدًا. تمرُّ الأعوام ولا جديد، أتطلَّع مثل غيري للزواج والاستقرار وبناء أسرة، لكن مع نهاية كل شهر أتذكَّر المثل الشعبي الذي تقوله أمِّي كثيرًا (العين بصيرة واليد قصيرة)، وبعد أن كنت أسعى لرد جميل أبي وأمي وإكرامهم وإراحتهم، صار أكبر أحلامي أن أحمل همَّ نفسي ويكفيهم ما حملوا حتى الآن.

نبيه:

– والله نفس الحال يا بن عمي، الجاي على قد الرايح.

ينظر مختار لنبيه بغيظ ثم يكمل:

– وجدت أحد أقاربي يحمل لي البشرى، إنَّه إعلان عن فرصة عمل في دولة خليجية، ذهبت لمكان المقابلة، وجدت شباب مصر كلهم هناك، الحمد لله كانت المقابلة ناجحة، وبعد انصرافي جاءني اتصال من أحد أعضاء اللجنة ليبلغني باختياري للسفر على مؤسستهم، ويطلب مني تجهيز الأوراق والاستعداد للسفر.

نبيه:

– طبعًا وجد لك الفرصة ونسيني، مع أني نفس عمرك وابن عمِّك ولا يوجد أي فرق بيننا غير الشهادة التي حصلت أنت عليها، وأنا فلَّاح لا يوجد من يضاهيني وعليَّ ضربة فأس تساوي مائة شهادة.

مختار:

– يا حبيبي ارحمني، أريد أن أتحدَّث للناس.

يكمل:

– غمرتني الفرحة في البداية، جمعت هذه الأوراق، منها ما هو للسفر، ومنها ما فيه الديون المطلوب سدادها، وأوراق مكتوب فيها ما أحتاج إليه لغربتي، ثم تسرَّب القلق لنفسي، ولأني مؤمن بمقولة "ما خاب من استشار"، فقد استطلعت آراء من حولي، شجعني الكثيرون، وخوَّفني الكثيرون، وهذا ابن عمِّي قد جمع كل الآراء في رأيه، ويقول لي: "محسومة، لماذا تحتار؟"، صرت مترددًا، لا أستطيع أن أحسم الأمر. وعملًا بالأسلوب العلمي المواكِب لعصرنا والمناسب لثقافتي وتعليمي، ذهبت لجمع الآراء في موضوع الغربة، والشبكة العنكبوتية لا تبخل علينا، وعمُنا جوجل موجود، وفيه نجد القول الفصل في أي موضوع، والمعلومات الوفيرة عنه. ولأنَّني أحب الأدب والشعر، وأقدِّر الأدباء والشعراء وأراهم أقدر الناس على تقديم الرأي في لفظ موجز وعبارة بليغة، ذهبت لمعرفة أقوالهم في هذا الباب، لعلِّي أصل لقناعة تحسم أمري بقبول الغربة أو رفضها.

نبيه:

– أنت والله تتعب نفسك بدون داعٍ، الحكاية لا تحتاج.

يكمل مختار متجاهلًا صديقه تمامًا كأنه غير موجود:

– وبعد البحث وجدت رأيين، الرأي الأوَّل منهما أن تسافر، فلعل في الغربة الخير، أبواب للرزق تُفتَح، وفرص جديدة قد تغير حياتك، اسمعوا بالله عليكم وشاركوني ما قاله العلماء في هذا الشأن، فقد تصلون معي للرأي الصواب، اسمع يا سيدي:

جاء في المبهج للثعالبي: «من آثر السفر على القعود فلا يبعد أن يعود مورق العود».

وقيل: «ربَّما أسفر السفر عن النظر، وتعذَّر في الوطن الوطر».

وجاء في المحاسن والمساوئ للبيهقي: «اطلبوا الرزق في البعد، فإنَّكم إن لم تكسبوا مالًا غنمتم عقلًا كبيرًا».

وقد مدح أعرابيٌّ رجلًا فقال: «خرَّجته الغربة، ودرَّبته التجربة، وضرسته النوائب».

وجاء في كتاب اللطائف والظرائف لأبي نصر المقدسي: «ليس بينك وبين بلدك نسب، فخير البلاد ما حملك وجمَّلك».

فرحت جدًّا وبدأت مظاهر الارتياح تظهر على وجهي، وحينما ذهبت لصفحة أخرى وجدت التشجيع على السفر أيضًا:

وإذا الديار تنكَّرت عن حالها	**فدع الديار وأسرع التحويلا**
ليس المقام عليك حقًّا واجبًا	**في منزلٍ يدع العزيز ذليلا**

ثم أقرأ كلمات زادتني رغبة في الغربة، وصاحبها هو الشاعر الصعلوك عروة بن الورد، أسعدني بقوله:

إذا المرء لم يطلب معاشًا لنفسه	**شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا**
وصار على الأدنَيْن كَلًّا وأوشكت	**صلات ذوي القربى له أن تنكرا**
وما طالب الحاجات من كلِّ وجهةٍ	**من الناس إلا من أجدَّ وشمَّرا**
فَسِرْ في بلاد الله والتمس الغنى	**تَعِشْ ذا يسارٍ أو تموت فتُعذرا**

هنا يقف نبيه متوجِّهًا بكلامه للجمهور لأوَّل مرة:

– ترك كلام ونصائح ابن عمه وراح يسأل الصعاليك، بالله عليكم هل يختلف كل هذا مع ما نصحته به؟ قلت له سافر ولا تتردَّد.

يضحك مختار قائلًا:

– حقًّا ما تقول، كل هذه الآراء خرجت في الأساس من رأيك يا فيلسوف العائلة.

يصمت حتى يعود لهدوئه، ثمَّ يكمل:

- لكنَّ صوتًا في داخلي يتردَّد محذِّرًا: "لا تسمع لهم فالغربة قاتلة، أكمل قراءة في صفحات أخرى"، وبالفعل ذهبت لعناوين جديدة يقترحها جوجل عن الغربة، وعدت إلى حيرتي بعد أن قرأت:

قيل لبعض الحكماء: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر.

قال «الحجَّاج» -وهو المشهور بمكره ودهائه وقسوته-: لولا فرحة الإياب لما عذَّبت أعدائي إلا بالسفر

ووصف بعض الحكماء الغريب بقوله: الغريب كالغرس الذي زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاوٍ لا يزهر وذابل لا يثمر.

وكانت العرب تقول: الغربة ذلة والذلة قلة.

وكان يُقال: لا تنهض عن وكرك فتنقصك الغربة وتضيمك الوحدة.

وهذا أحدهم يقول بعد أن قضى في الغربة عمرًا:

تغرَّبت عن أهلي أؤمِّل ثروة	فلم أُعْطَ آمالي وطال التغرُّب
فما للفتى المحتال في الرزق حيلة	ولا لجدودٍ جدَّها الله مذهب

نبيه:

- يا بني قلت لك من البداية لكنك مش بتسمعني، اللي ما لوش خير في بلده وأهله.... وصدق من قال: لا تطلع من دارك يتقل مقدارك.

يرفع صوته متجاوزًا ما سمع:

- صرت كمن شرب من البحر فما ارتوى، بل زاد عطشي ورغبت في الزيادة، قلَّبت في المواقع فوجدت هذه الأقوال والآراء لأصحابها:

أمَّا الشاعر أبو العتاهية، فينصح بالاغتراب إن اقتضى الحال، ويعلن أنَّه يرى الغربة بابًا من أبواب الفرج التي يجب طرقها على من ضاقت به الحال:

من عاش قضى كثيرًا من لُبانته	وللمضايق أبوابٌ من الفرج
من ضاق عنك فأرض الله واسعةٌ	في كلِّ وجه مضيق وجه منفرج

ويتَّفق معه البحتري ويتبنَّى ذات الرأي، فالعزَّة في رأيه تقتضي أن الرضا بالغربة وآثارها أفضل من الرضا بالذلة والبقاء معدمًا في وطنك، هنا الغربة ضرورة:

وإذا الزمان كساك حُلَّة معدَمٍ	فالبس لها حُلَلَ النوى وتغرَّب

وهذا الشاعر المخضرم بشار بن برد، وهو المجرِّب الخبير، يعطينا خلاصة تجربته، كيف فعل حين ضاقت به الحال وأنكرته بلاده، فذكر أنه دائمًا يبحث عن البديل ولا يرضى العيش في ضيق، وأنَّ الله لا يضيِّق على من يسعى:

وكنت إذا ضاقت عليَّ محلَّةٌ	تيمَّمْتُ أخرى ما عليَّ تضيقُ
وما خاب بين الله والناس عاملٌ	له في التقى أو في المحامد سوقُ
ولا ضاق فضل الله عن متعفِّفٍ	ولكنَّ أخلاق الرجال تضيقُ

وهذا صوت آخر يؤيد بشارًا في قوله، إنَّه نفطويه، يبادر لعرض رأيه، ويلخِّصه في الدعوة للمخاطرة بالتغرُّب، فهو فعل الحرِّ الذي لا يعذر على العجز، وأن التغيير هو طريق بلوغ الغاية، ثمَّ يتغنَّى بهذه الأبيات:

خاطر بنفسك لا تقعد بمعجزةٍ	فليس حرٌّ على عجزٍ بمعذور
إن لم تنل في مقامٍ ما تطالبه	فأبلِ عذرًا بإدلاجٍ وتهجير
لن يبلغ المرء بالإحجام همَّته	حتى يباشرها منه بتغيير

نبيه:

- بشَّار ايه والقذَّافي ايه، خد من ابن عمَّك وسيبك من الغريب،

ما حدش يحب لك الخير زيي.

يتوجَّه مختار بالكلام هذه المرة لنبيه لعلَّه يفهم ويرحمه من المداخلات العجيبة، يقول ويسمع الجمهور:

- استمع لهذه القصَّة:

نبيه:

- قل، ليس وراءنا شيء، نقضيها قصص وحكايات.

يكظم مختار غيظه ويكمل:

- كان هناك رجل من العرب، وكان له ابنٌ يريد السفر، وبعاطفة الأبوة يحاول منعه إشفاقًا عليه، يقول له: "لا، لا تتركنا يا بني، لا تهجر وطنك فتهجرنا معه، الغربة يا ولدي قاتلة وإني أخشى عليك، والأمل في الله أن يغير الأحوال ويفتح لك أبواب الرزق في بلدك، بلدك أولى بك يا ولدي"، فيعلو صوت الولد قائلًا:

ألا خلِّني أمضِي لشأني ولا أكن	على الأهل كلا إن ذا لشديد
أرى السير في البلدان أغنى معاشرًا	ولم أرَ مَن أجدى عليه قعود
تهيِّبني ريب المنايا ولم أكن	لأهرب عمَّا ليس عنه محيد
فلو كنت ذا مال لقُرِّبَ مجلسي	وقيل إذا أخطأت أنت رشيد
فذرني أجول في البلاد لعلَّه	يُسَرُّ صديقٌ أو يُساء حسود

يعلِّق نبيه:

- والله الولد عنده حق، والأب يجب أن يكون أعقل من هذا، هو سيسافر لأجل من؟ أليس لهم؟ تغور الأنانية يا أخي.

يشد مختار شعره ويضرب كفًّا بكف، ثم يتوجَّه لنبيه بالكلام، يظنُّ أنه يستميله ليسكت:

- تدري أن شاعرًا كبيرًا يوافقك الرأي؟ اسمه أبو نصر الظريفي الأبيوردي، يشجِّع الابن على السفر، ويدعو الأب أن يسمح لابنه بالسفر، فالأمر لا يعدو أن يكون طلبًا للرزق، وليس هجرًا للوطن أو إعلان القطيعة معه، فالطيور تترك أعشاشها طلبًا للرزق، ثمَّ لا تلبث أن تعود، فقال:

أرى وطني كعُشٍّ لي ولكن	أسافر عنه في طلب المعاش
ولولا أن كسب القوت فرض	لما برح الفراخ من العشاش

نبيه:

– الله على كلامك يا (أبو نصر) تفرح بنصر وبعياله. يفرق ايه كلامه عن كلامي؟ فعلًا طارب الحيِّ لا يزمر.

يضحك مختار حتى يقع على الأرض:

– اسمها زامر الحيِّ لا يطرب.

نبيه:

– يا أخي علِّمني (الهيافة)، تركت الموضوع ومسكت في كلمة.

مختار:

– يعني هذا رأيك ولن تغيِّره؟

نبيه:

– يا بن عمِّي الحياة محتاجة إلى أن تستفيد ممَّن لديهم الخبرة مثلي، أنا سافرت كثيرًا وتغرَّبت كثيرًا، ما بين الأراضي والأسواق، يا رجل أنا ذهبت للقاهرة مرتين، وأقمت في المركز ثلاثة أيام، خذ مني وتوكَّل على الله.

مختار:

– يعني رأيك أسافر؟

نبيه:

– طبعًا سافر، لا تترك الفرصة تضيع، لكن أيضًا الرزق هنا كثير، ورب هنا رب هناك.

يمسك مختار رأسه بقوة وكأنها ستسقط من فوق عنقه:

– بالله عليك تسكت، لأجل خاطري اسكت، ممكن تسكت؟

يخشى مختار من غضب نبيه، فهو يحبُّه كثيرًا، فيقول له:

– نبيه حبيبي، حاول تسمع للآخر ثم تكوِّن رأيًا تقتنع به وتدافع عنه.

نبيه:

– الرأي موجود لكن من يسمع ويفهم؟

مختار:

– طيِّب ما رأيك أن أكمل للناس ما قرأته نستطلع رأيهم وبعدها نقرِّر؟

يهزُّ نبيه رأسه موافقًا على مضض.

يعود مختار للجمهور وقد قرَّر عدم الالتفات لصديقه، وعدم ترك أي مساحة لإفساد الليلة، حتَّى يستطيع الحصول على رأي في موضوع الغربة:

- من ضمن ما قرأت هذه الآراء التي ترفض الغربة وتحذِّر منها...

وهنا يشير لنبيه -الذي كان يريد الكلام- أن اسكت ويذكِّره بما اتفقا عليه، ثمَّ يكمل:

- يقول الشاعر الكبير لبيد بن ربيعة، محذّرًا مَن يريد الغربة، مذكِّرًا إيَّاه بأنه ذاهب للمجهول:

لعمرك ما يدريك إلا تظنّيا إذا رحل السفّار من هو راجع

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويوجِّه زهير بن أبي سلمى، أحد أشهر شعراء العرب، وحكيم الشعراء في الجاهلية، يوجِّه إلى إكرام النفس وصونها عن الغربة:

ومَن يغترب يحسب عدوًّا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرَم

وهذا بيت لامرئ القيس رأس الشعراء في الجاهلية، وأحد أبرزهم في التاريخ، أجاب أنه جرَّب الغربة ونتيجتها:

وقد طوَّفت في الآفاق حتَّى رضيت من الغنيمة بالإياب

وينصح كعب بن زهير ألا تهين نفسها بالغربة

فقرِّي في بلادك إنَّ قومًا متى يَدَعوا بلادهم يهونوا

وكلَّما تحدَّث مختار، هزَّ نبيه رأسه كأنه يفهم كل ما يقول ويوافق عليه، معلِّقا:

- يسلم فمك، هذا هو الكلام، مثلما قلت تمامًا، يا سلام لو نسمع الكلام من الأوَّل!

يكمل مختار:

- يقول أحدهم بهذا الرأي الذي يتبنَّاه الكثيرون (مهما كان بلدك أفضل):

لَقرب الدار في الإقتار خير	من العيش الموسَّع في اغتراب

ويردّ بعضهم بالتخويف من الغربة، وبمفهوم المقولة المشهورة: (الغريب ضعيف):

لا ألفينَّك ثاويًا في غربةٍ	إنَّ الغريب بكلِّ سهمٍ يُرشق

ومن باب التجربة والخبرة السابقة، يحسمها أحد الشعراء بكلام رائع، ملخصه أنك مهما تحاول أن تظهر متماسكًا، فغدًا ستبكي عند ذكر الوطن:

ما من غريبٍ وإن أبدى تجلُّده	إلا سيذكر بعد الغربة الوطنا

نبيه وهو يمصمص شفتيه:

- يا عيني على الغريب يا ولاد.

- وهذا نموذج لشاعر كأنَّه يخاطبنا بقوله: «أنا نموذج لكثير من المغتربين، الذين يبدؤون بالتأكيد لأحبابهم أنه عام أو عامان لا أكثر، ثمَّ تأخذه الغربة وتطول أيَّامها، بعيدًا عن أحبابه لا يعلمون عنه شيئًا، فقد استحوذت عليَّ الغربة، وصار الموت لا يخطر على بالي، ورأيت نفسي أفتقد القناعة التي هي في الواقع قمة الثراء».

حتى متى أنا في حلٍّ وترحال	وطول سعي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفكُّ مغتربًا	عن الأحبَّة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض طورًا ثمَّ مغربها	لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعتُ أتاني الرزق في دعةٍ	إنَّ القنوع الغنى لا كثرة المال

نبيه معلِّقًا:

- طيِّب قل لنفسك، يا معدِّل على الناس مين يعدِّل عليك؟

- وتناولها آخر بمقياس العزِّ والذلِّ:

فلم أرَ عزَّ المرء إلا عشيرة   ولم أر ذلًّا مثل نأيٍ عن الأهل

هؤلاء يرون البقاء في الوطن ونبذ فكرة الغربة هو الأفضل والأكرم للإنسان، بل والأضمن من مجهول التجربة.

وهنا يرتدي نبيه ثياب الحكمة، ويتحدَّث بلسان أحد الشباب المتحمسين للغربة بقوله:

- طبعًا هذا رأيكم، وذلك يرجع إلى أنَّ أحدكم كان يكفيه خيمة، ويسدُّ حاجته خبز وماء، ولم يكن مطالبًا بتجهيز شقة للسكن وأجهزة كهربائية و(نيش)، ولا ثمن جرامات من الذهب عند الزواج، ولا مصاريف ومتطلبات للأطفال منذ ولادتهم حتى نهاية المرحلة الجامعية، وعندكم الإبل والخيل تتنقَّلون بها، ولم تعانوا بسبب المواصلات، ولم تتطلَّعوا يومًا لاقتناء سيَّارة حديثة، ولم تكن الحياة في أوقاتكم بنفس صعوبتها الآن.

وقال آخر:

إنَّ الغريب بأرضٍ لا عشير بها   كبائع الريح لا يُعطى به ثمنا

وينصحنا أحدهم ليكفينا مؤنة التجربة:

فيا بن أبي لا تغتربْ إنَّ غربتي   سقتني بكفِّ الضيم ماء الحنظل

وهذا الأعرابي أراد السفر والغربة، فأخذ يتجهَّز ويعدُّ أغراضه، ويقول لامرأته:

عدِّي السنين لغيبتي وتصبَّري   وذَري الشهور فإنَّهنَّ قِصار

لكنَّها امرأة حصيفة، أجابته بما يلين قلبه، أو كما نقول نحن (أمسكته من يده التي توجعه):

اذكر صبابتنا إليك وشوقنا   وارحم بناتك إنَّهنَّ صغار

فأقام الرجل وترك سفره.

نبيه:

- امرأة ذكية، فعلًا النساء تنفات لهم بلاد.

يصرخ واحد من الجمهور مخاطبًا مختار:

- الرأي عندي يا مختار ولا تضيِّع وقتك.

مختار:

- تفضَّل إني أسمعك.

يقول الرجل:

- والله لقد صرنا في حيرة مثلك، وهناك أمران لا بدَّ منهما، الأوَّل أن تصلِّي صلاة الاستخارة، فادعُ الله أن يختار لك.

مختار:

- والثاني؟

الرجل:

- تخلَّص من هذا الكائن المرافق لك، لقد أصابنا نحن بالحيرة، وصرنا متردِّدين أكثر منك.

نبيه:

- قلت لك ولم تسمع كلامي، النصيحة من الغريب عليها سكَّر.

Table of Contents

الفصل الأوَّل
غُـربة
الفصل الثاني
وتـبـدأ المـعـانـاة...
الفصل الثالث
خواطر من وحي الغربة
الفصل الرَّابع
بين الغربة والذكريات
الفصل الخامس
بأيِّ حالٍ جئتَ يا عيد؟
الفصل السادس
حُـلْـوُ الغُـربـة
الفصل السادس
وفي الغربة مرار
الفصل السابع
حكايات الغريب
الفصل الثامن
على رأي المثل
الفصل التاسع
طَـرَبُ الغُربة
الفصل العاشر
قمر الغربة لا يُضيء
الفصل الحادي عشر
الغربة في الوطن
الفصل الثاني عشر
استراحة